صالح بن عبد القدوس

obeikandl.com

obeikandl.com

صالح بن عبد القدوس[١]

تمهيد:

يحتل صالح بن عبد القدوس مكانة عالية بين الشعراء، بأسلوبه القوي وعباراته البليغة، وأقواله التي تتسم بالحكمة، وبعد النظر، والغوص وراء الفكرة، لاستكشاف جذورها ثم استنباط معان جديدة. فهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم، له وجهة نظر محددة، ورؤية خاصة، فيما يراه من أحوال المجتمع، والأصدقاء والوزراء، والخلفاء.

وأغلب أشعاره يغلب عليها طابع الحكمة المستفادة من النظرة الشاملة التي تستطيع أن تستجمع أطراف المواقف المتعددة في بؤرة واحدة، هي الكلمة الموجهة والمثل السائر. فهو دائماً له أفكاره المحددة التي تعتمد على تقرير الأمور بنظرة كلية.

وبعبارة أخرى فقد تميز فكره بالنظرة الكلية التي تعتمد على الاستقراء.

ومن العجيب أن حياته قد أغفلها المؤرخون، وأهملوها، ربما لما أشيع عنه، من تهمة الزندقة، رغم أنهم لم يألوا جهداً في ذكر معايبه، ورميه بالنواقص، وكل من تناول حياته يبرز أنه متهم بالزندقة وقتله الخليفة المهدي، واللاحق ينقل عن السابق دون تحليل أو مناقشة.

وما يعرف عن حياته، وأطوارها قليل. وما نملكه عن سيرته نزر يسير.

ولكي يتم رسم صورة مفصلة لأبعاد شخصيته، يجب الاعتماد كلية على أشعاره حتى يتسنى لنا استنباط الحقائق، واستقراء جوانبها، وإخضاعها لعناصر المنهج العلمي، والوصول إلى النتائج المترتبة على هذه المقدمات، وهاك محاولة لذلك.

---

(١) هذا البحث كتبته عام (١٩٨٩) مع مجموعة من الشخصيات التي لاقت حتفها في الحضارة العربية الإسلامية،ونشرت المجموعة الأولى في كتابي شهداء الفكر في الإسلام ط،الجزائر،وكنت أنوي أن أتناول مجموعة أخري مثل أبي منصور الحلاج وأحمد بن نصر الخزاعي وشهاب الدين السهروردي،لكن لم أتمكن من مواصلة المشروع الذي بدأته واكتفيت بذلك.

أولا : نبذة عن حياته :

اسمه صالح بن عبد القدوس بن عبد الله الأزدي الجذامي، وينسب إلى الأزد بمولده أو ولائه على اختلاف. وهو من موالي البصرة، وقد نشأ فيها، وشب على أرضها. وينفرد الخطيب البغدادي ت ٤٦٣هـ، بالتصريح أن كنيته: «أبو الفضل البصري «وكل الروايات التاريخية لا تفصح عن وظيفته أكثر من أنه كان يعمل واعظاً في مساجد البصرة ثم انتقل للعمل بالوظيفة نفسها في دمشق، وكذلك قام برواية القصص ثم استدعاه الخليفة المهدي من دمشق وحاكمه وقتله عام ١٦٧هـ[١].

أما الوعظ فأمره مفهوم، حينما يرى شيخ جالساً في مسجد وحوله جماعة من الناس فيفهم من ذلك أنه يعظهم، ويتكلم معهم في أمور الدين، وقواعد العقيدة، والحث على الفضيلة، وصلة الأرحام، والتعاون وبالإجمال مكارم الأخلاق مستخدماً في ذلك أسلوب الترغيب والترهيب.

أما عن روايته للقصص فأمر غير واضح، لأنه غير محدد، ما طبيعة هذه القصص؟ وما مضمونها؟ أهي من تاريخ الجاهلية؟ أم من الإسرائيليات؟ أم من الإسلام؟ أم قصص اجتماعية مأخوذة من التراث العربي بخاصة والإنساني بعامة، ولها دلالات اجتماعية؟ فهي تنقد الحاكم والخليفة وتنكر الاستئثار بالحكم، وتحارب الظلم الاجتماعي وتنكر الهوة بين الطبقات، وتدعو للعدالة الاجتماعية والحق العام لجميع العرب والمسلمين.

ربما يكون الاحتمال الأخير أقرب للواقع، لأنه يوضح لنا بعض الأسباب التي أدت إلى مقتله.

١- صفاته:

تجمع الروايات على أن صالح بن عبد القدوس كان حكيم الشعر، وأديباً فحلاً وشاعراً مجيداً، متكلماً مفوهاً، يقدمه أصحابه في الجدال عن مذاهبهم، واسع الثقافة غزير

(١) معجم الأدباء جـ١٢ ص٦، تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧١، عصر المأمون جـ١ ص٤٠٣.

المادة العلمية، جم الأدب والفضل، بارعاً في صياغة معانيه، وله باع طويل في حسن البيان ونظراته عميقة في الأمور التي تتسم بالحكمة وخبرة السنين، وتميزت شخصيته بالميل إلى الانطواء وحب العزلة والبعد عن الناس، شأن الفلاسفة آنذاك[١].

٢- مؤلفاته:

لا توجد مؤلفات باقية بين أيدينا لهذا الشاعر الفذ، وكل المتبقي له اليوم مجموعة من الأشعار متناثرة في كتب الأدب.

وأهم مؤلف تحدث عنه المؤرخون:

١- كتاب الشكوك، الذي ينسب إليه، ويأتي الحديث عن هذا الكتاب في معرض الحوار الذي دار بين شاعرنا وأبي الهذيل العلاف – شيخ المعتزلة (ت ٢٣٥هـ)[٢].

٢- ديوان صالح بن عبد القدوس: ذكر أبو هلال العسكري أن هذا الديوان اشتمل على ألف مثل من الأمثال العربية، وألف مثل من الأمثال الأجنبية.

٣- القصيدة الزينبية: وتنسب إليه أيضاً، وهي تشتمل على الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والقيم الإنسانية، وقد أشار إليها بروكلمان، علاوة على أشعار كثيرة منشورة في كتب الأدب، وقد جمع بعضها لويس شيخو(١٨٥٩-١٩٢٧) في مجلة المشرق[٣].

٣- التعريف بأبعاد شخصيته من خلال شعره:

- الشعر مرآة النفس، وصورة واضحة لمنهج الإنسان، وانعكاس صادق لأفكاره ومشاعره، وسريرته وضميره، وهو يصور بوضوح طبيعة الشخصية: ميولها وأهواءها،

---

(١) تاريخ بغداد جـ٩ نقلاً عن معجم الأدباء جـ١٢ ص ٦، تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧١، الوافي بالوفيات جـ١ ص٢٤٥، نكت الهميان ص١٧١، نيكلسون: تاريخ الأدب العباسي ص١٧٦ تاريخ آداب اللغة العربية جـ٢ ص٨٩. حياة الحيوان الكبرى جـ١ ص٤٣ (ط.الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨).

(٢) وفيات الأعيان جـ١ ص٤٨٠، بروكلمان: تاريخ الأدب جـ٢ ص١٧، (ط.دار المعارف بمصر،١٩٧٧م).

(٣) تاريخ الأدب جـ١ ص١٧، جـ٢ ص١٨، معجم الأدباء جـ١٢ ص٨-٩، عصر المأمون جـ٢ ص٤٠٥-٤٠٦.

ورغباتها، واتجاهاتها ودفائنها.

نعم «الشعر هو الصوت الصارخ الخارج من أعماق النفس بل ومن أعمق أغوارها ليسبك في اللغة عنواناً حياً على النفسية التي بعثته من قرارة الوجدان إلى عالم الخطاب»[١].

والقارئ لشعر صالح، يستطيع أن يتتبع أبعاد هذه الشخصية في سهولة ويسر فيرسمها دون ظلال أو تزييف لجوانبها. ويستنبط منه أهم السمات التي تميزها.

- اعتزازه بنفسه والثقة بها: هذه سمة تبرز واضحة من خلال شعره، فتراه معتزاً بنفسه معتداً بها مستقلاً بذاته، متفرداً بشخصيته، لا يتقرب لأمير أو وزير، أو يتودد لحاكم أو كبير، يقول:

يـا صـاح لـو كرهـت كفـى منـادمتى ... لقلت إذ كرهت كفى لهابينى
لا أبتغـي وصـل مـن لا يبتغـي صـلتي ... [٢]ولا أبـالي حبيبـاً لا يبـاليني

ويقول:

إذا ما أهنت النفس لم تلق مكرماً ... لها بعد إذ عرضتها لهـوان[٣]

- القناعة: هذه سمة تدل على البعد عن متع الدنيا، والترفع عليها والإعراض عنها، أي أنه يتميز بالزهد والتجافي عن طيباتها، ومن يتسم بذلك، يقنع بما تجود به الحياة، ويرضى بما هو واقع متمتعاً سعيداً بما يملكه غير آسف على مافات، طارداً من أفكاره الحسرة والندامة على ما ولى من ماض، غير آبه لما يحمله له المستقبل من المفاجآت.

وربما لهذه السمة، أي سمة القناعة والزهد والإعراض عن متع الدنيا، رمى الشاعر بتهمة الزندقة، التي كانت تعني الإيمان ببعض عقائد المانوية.

والحق يقال: إن الشاعر إذا كان يلتقي مع المانوية في بعض النقاط، فيجب أن نحللها نقطة نقطة كلما التقينا بأوجه التلاقي، على حسب ما يدعى المؤرخون.

---

(١) إسماعيل مظهر: تاريخ الفكر العربي ص١٨٩. (دار الكاتب، بيروت).
(٢) نكت الهميان ص١٧١، الوافي بالوفيات جـ١ ص٢٤٥.
(٣) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٣، (ط. أحمد عبيد، المكتبة العربية، دمشق، ١٣٤٩هـ).

فإذا قالوا: إنه كان زاهداً، تشبها بتعاليم المانوية. قلنا: إن دعوة الزهد لم تكن وقفاً على المانوية أو المسيحية، ولكنها دعوة قررها الرسول في سلوكياته وعضدها صحابته في حياتهم اليومية، وسار على نهجها أكثرية المسلمين، وتعد من مفردات الأخلاق الإسلامية، فضلا عن أهل الزهد والتصوف.

علاوة على استنباطه العديد من الأفكار من القرآن الكريم مما يؤكد أنه كان ينحو منحى إسلامياً، وليس صوب المانوية.

يقول:

إن الغنى الذي يرضى بعيشته لا من يظل على ما فات مكتئباً[١]

وهنا ملحظ لا يخفى على الناظر:

فالشاعر يستنبط هذه الحكمة من الآية القرآنية مسترشداً بها في شعره بقول المولى ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٢].

- كراهيته للمنافقين:

الناس أصناف شتى، فمنهم من يحب الوضوح والصراحة، ومنهم من يعشق المداراة والنفاق، ويظهر للآخرين غير ما يبطن، ويتجلى أمام الناس بصورة ويضمر في نفسه صورة أخرى.

والشاعر يرسم لنا صورة مقيتة لشخصية المنافق المزدوجة، فهو يحمل الرحمة في يد والعذاب في الأخرى، يمدح شخصاً ما زيفاً إذا اقتضى الموقف ذلك، ويهجوه في موقف آخر، فهو مثل بندول الساعة يتجه يمينا وشمالا حسب مصلحته. ثم يقرر هذه الحكمة المستفادة في إيجاز بليغ وصياغة محكمة:

إن الصديق الحقيقي حبيب لا نخشاه، أما العدو فعلينا الحذر منه دوماً. يقول:

إني لأعجب مما سمتني عجباً يد تشج وأخرى منك تأسوني

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٥.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣.

تعييني عند أقوام وتمدحني ... في آخرين وكل عنك يأتيني
هذان أمران شتى بون بينهما ... فاكفف لسانك عن شتمي وتزييني
ليس الصديق الذي تخشى عوائله ... ولا العدو على حال بمأمون[١]

- كراهيته لمن يهتم بمظهره دون مخبره:

هذه صورة أخرى مشاهدة في الواقع لبعض أفراد المجتمع، الذين نجدهم في كل مكان وزمان، فهم يهتمون بالمظهر الخارجي، أو بالصورة المرئية، دون الباطن ويحافظون على هذا المظهر حتى من ذرة الغبار، أما باطنهم فقد تهدم بالغواية والفسق وامتلأ بالذل والشر. ويرى أن الرجل الحقيقي هو من يصمد أمام محنة الفقر وقسوته ويحافظ على جوانيته طاهرة، وعرضه شريفاً، رغم ملابسه المهلهلة القذرة.

يقول:

لا يعجبنك من يصون ثيابه ... حذر الغبار وعرضه مبذول
ولربما افتقر الفتى فرأيته ... دنس الثياب وعرضه مغسول[٢]

- الاهتمام الشديد باختيار أصدقائه:

يركز الشاعر على أهمية اختيار أصدقائه مبيناً أن الصديق هو صورة حقيقية لصديقه، ثم يوضح أهميته في حياة الإنسان الخاصة والعامة، منها تبادل الرأي والمشاركة العاطفية، والتسرية عند المصيبة، والتهنئة عند الفرح.

يقول:

تخير من الأخوان كل ابن حرة ... يسرك عند النائبات بلاؤه
وقارن إذا قارنت حراً فإنما ... يزين ويزري الفتى قرناؤه
حبيباً وفياً ذا حفاظ بغيبة ... وبالبشر والحسنى يكون لقاؤه

(١) المصدر السابق ص٣٧٤.
(٢) تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٣٧٥، نكت الهميان ص١٧٢. يرى سقراط أن من الشجاعة صمود الإنسان أمام قهر الفقر، وتحمل مصائب الحياة.

أريب إذا شاورت في كل مشكل أديب يسوء الحاسدين بقاؤه
فلن يهلك الإنسان إلا إذا أتى من الأمر مالم يرض نصحاؤه
تمسك بهذا إذ ظفرت بوده فيهنيك منه وده ووفاؤه
إذ المرء لم يصحب صديقاً موافيا على أي حال كان خاب رجاؤه[١]

ومن الجدير بالإشارة، ذكر جماعة الأصدقاء الذين انتقاهم الشاعر، وحدد صفاتهم وتحدث عن وفائه لهم.

نوه صاحب الأغاني بأسماء هذه الجماعة التي كانت تعيش في البصرة وتعقد اجتماعات دورية في منزل أحدهم، ويتناقشون في المسائل السياسية والاجتماعية والعلمية، وأبرز هؤلاء: واصل بن عطاء (ت١٣١هـ) وعمرو بن عبيد (١٤٣هـ)، وبشار بن برد، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ورجل من الأزد[٢]، ولعله قريب صالح لكونه من الأزد.

ويذكر ابن نباته جماعة صالح دون أن يضيف إليهم أحداً، إلا أنه يذكر اسم رجل الأزد أنه جرير بن حازم[٣].

أما ابن تغرى بردى، فيذكر جماعة الأصدقاء، ويضيف إليها أسماء أخرى، ويصل بهم إلى عشرة كانوا يجتمعون في البصرة، يتناشدون الأشعار ويتذاكرون الأخبار ويستعيدون الأقاصيص، ويتمازحون في الكلام، ويتبادلون النكات وهم:

الخليل بن أحمد صاحب العروض سنى، والسيد محمد الحميرى الشاعر الرافضي، وسفيان بن مجاشع صفرى، وبشار بن برد خليع ماجن، والشاعر حماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت شاعر يهودي، وابن نظير النصراني متكلم، وعمرو بن أخت المؤيد مجوسي، وابن سنان الحراني شاعر صابئي، وشاعرنا[٤].

ويتعجب من اجتماع كل هؤلاء في مجلس واحد، رغم اختلاف اتجاهاتهم، وتنوع

(١) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٦.
(٢) الأغاني جـ٣ ص١٤٧.
(٣) سرح العيون ص٢٠٧.
(٤) النجوم الزاهرة جـ٢ ص٢٩.

مشاربهم، وتباين مذاهبهم، وتعدد عقائدهم.

وعجب ابن تغرى بردى لا محل له، فهناك قاسم مشترك يتألف هذه الجماعة وهو الفكر ومدارسة العلم، زيادة على اهتمامهم بأمور الدولة، فهم يمثلون الطبقة المستنيرة وأصحاب الرأي، الذين يتصدرون لقيادة الفكر في مجتمعهم، والرأي المعارض للسلطة الحاكمة ويتبنون آراء في العدل الاجتماعي، والإصلاح السياسي، والثورة على الأوضاع الفاسدة والتمايز الطبقي، والاستئثار بالسلطة من قبل الفرس أو العباسيين.

ويحاربون الصبغة الدينية المقدسة التي أضفاها الخلفاء على أنفسهم وأهل بيتهم هذه نقطة.

والأخرى أنه لا عجب من اجتماع مثل هذه الجماعة، التي تجمع المجوسي واليهودي والنصراني والمسلم على فرض صحة رواية صاحب النجوم الزاهرة.

فهذا دليل على سماحة العصر العباسي الأول وسعة صدره مع أصحاب الديانات الأخرى، الذي أتاح لهم فرصة التعبير عن الرأي، والإدلاء بوجهة نظرهم.

وأيضاً ليس في مبادئ الدين الإسلامي ما يمنع من اجتماع أهل الأديان، لكي يتناقشوا في أمر متعلق بالدين أو يهم المجتمع، أو يتدارسوا موضوعات علمية سوياً، ولكل عقيدته، فلا إكراه في ذلك.

ومثل هذا الاجتماع يتكرر بصفة يومية في مجتمعنا المعاصر، دون أن يضار أحد في عقيدته، أو يتهم في دينه، ولعل مثل هذه الظاهرة، لم تكن مهضومة بدرجة كافية أو مقبولة من أفراد المجتمع، وكانت بالطبع مرفوضة من قبل رجال الدين، الذين نظروا إليها نظرة الريبة والغضب، ولعل هذه الأوصاف ملفقة جميعاً للدور الكبير الذي تقوم به هذه الجماعة في محاربة السلطة السياسية بطريقة علنية، لاسيما والأوصاف موزعة عليهم بالقسطاس المستقيم، فسلطت عليهم كتابها وأجهزة إعلامها لكي تشوه صورتهم، وتتهمهم في دينهم. وهذه قضية لا يغفرها المجتمع لأحد.

- وفاؤه لأصدقائه:

هذه سمة أخرى تحدد طبيعة شخصية الشاعر الأليفة والمألوفة وتبين مدى حرصه على الوفاء بالوعد وحفظ العهود، فضلاً عن حبه لأصدقائه ورقته معهم، والتواصل الذي استمر بينه وبينهم، لهذا فهو جد حريص على الصدق معهم، والوفاء لهم في القول والعمل، وينكر إنكاراً قاطعاً، يصل إلى درجة الاستحالة أن يفكر مجرد التفكير في خيانة هؤلاء الأصدقاء.

يقول:

لا أخون الخليل في السر حتى ينقل البحر في الغرابيل نقلا
أو تمور الجبال مور سحاب مثقلات وعت من الماء حملا[1]

- لا يجالس السفهاء:

بعد أن أكد الشاعر على أهمية اختياره لأصدقائه وانتقاء معارفه، ووضح مدى إخلاصه لهم في جميع الأحوال، بدأ يستعرض خطورة أصحاب الشخصية المزدوجة، والنفوس الضعيفة وشرور السفهاء وناقصي العقل، ويحذر بشدة من مخالطة هؤلاء الناس الذين هم بلاء على أنفسهم ومصيبة على الآخرين.

يقول:

واحذر معاشرة الدني فإنها تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب
يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب[2]

- المفكر الحكيم الذي خبر الأيام وعركته التجارب:

من السمات البارزة عند مفكرنا، سمة الحكمة، أي المفكر الذي يستطيع أن يقف أمام العديد من ظواهر الحياة المتفرقة فيجمعها عند مبدأ واحد، وفكرة واحدة، فهو يتميز بهذه النظرة العقلية الشاملة، فيبلور مواقف الحياة، وسمات الأشخاص في جمل مختصرة تبرز نظرته النافذة للأمور. يتضح من خلال حديثه عن مواقفه مع الآخرين وتجاربه في الحياة،

(١) معجم الأدباء جـ١٢ ص١٠ (ط.عيسى الحلبي. القاهرة.د.ت).
(٢) المصدر السابق ص٩. وأيضاً حياة الحيوان الكبرى جـ١ ص٤٥ (ط.الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨م).

وعن تجاربه يقول – بعد أن غاص في أعماق الحياة، وعانى من آلام الأيام وعذاب الليالي:

أقول لمن يرعى وصاتي وينتهي إلى ... النصح من قولي له وبياني
مقاله من قد أحكمته تجارب وقاسى ... زماناً بعد صرف زمان(١)

ثم تتابع حكمه في يسر وسلاسة وصياغة محكمة، فيصور نتائج المعاملة الشريرة مع الناس وردود أفعالها، حينما يسكن الإنسان في دار يكرهها، أو ترمى به الأقدار لمجاورة شخص سيلط اللسان، جاف الطبع خشن الجانب، والجهل الذي يذكره الشاعر هو الشر بعينه، وهو يترجم مقولة سقراط (ت ٣٩٩ ق.م) أن المعرفة فضيلة، والجهل رذيلة.

يقول:

إذا ما لقيت الناس بالجهل والخنا ... فأيقن بذل من يد ولسان
ولا خير في دار إذا ما كرهتها ... وجار إذا ما كان حد سنان(٢)

وهنا ملحظ مهم، نستنتجه من خلال استقراء أشعاره، وهو ورود مشتقات كلمة «جهل» مثل: الجهل والجاهل والجهال، فيلحظ أنها أكثر من سواها دوراناً على قلم الشاعر، فهي تشير إلى أبرز ما كانت عليه تلك الفترة الزمنية التي نتحدث عنها، وتهتم بها، وتناقشه عامة، والشاعر خاصة(٣).

ولما كان الشاعر يعمل بالوعظ في مسجدي البصرة ودمشق، فقد قام بدور المصلح الاجتماعي، والرائد الذي خطط لعملية التنوير، ونشر الوعي، ومحاربة الخرافات والقضاء على الجهل والجهال.

وطبيعة المجتمع الزراعي، تتميز بانتشار الخرافات، والعصبية والعنصرية بالإضافة إلى الفهم الساذج والشكلي للدين، المتعلق بخوارقه، والوقوف عند نصوصه دون التعمق في أهدافه، أو الغوص على معانيه، ومن ثم يتجلى الدور البارز للشاعر في عملية التوعية

(١) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٣.
(٢) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٣.
(٣) أخذت هذه الفكرة من كتاب «عن الحرية أتحدث» ص٩٧ للدكتور زكي نجيب محمود.

الجماعية، والتنوير العقلي، فهو يركز جل شعره على محاربة الجهل ومساوئه، والجهال وأعمالهم.

زيادة على ذلك يلاحظ أنه من خلال عمله التصق بأفراد المجتمع، وألم بأحوالهم وتعرف على أفكارهم وسماتهم، وتبين ميولهم وسبر أغوارهم، وتحمل الإساءات منهم؛خشونة في التعامل والقول الجارح والغرور الكاذب، والمصيبة أنهم يرتعون في الجهل ولا يدركون ذلك ليس هذا فحسب بل يدعون الفهم والعلم ويسيئون لأنفسهم أكثر مما يسئ إليهم أعداؤهم.

اسمع إليه يقول:

ما تبلغ الأعداء من جاهل يبلغ الجاهل من نفسه[٤].

تلحظ خبرة السنين التي تراكمت، والعقل النافذ الذي يصور طبائع البشر وينفذ إلي أعماقهم يحلل شخصياتهم، والقلم البارع الذي يصف ويسجل، والكلمات المنتقاة المعبرة التي تنقل الصورة من عالم الخفاء إلى عالم الظهور.

ويتابع الشاعر دوره في عملية التنوير والتثقيف والتوعية، فيدخل في صراع مرير وطويل مع هؤلاء الجهال، لأنه ما ينفك يفضحهم ويعرض بهم ويظهر عوارهم وسطحية اهتمامهم، ويحذر منهم وينعى عليهم جهلهم، وضيق أفقهم فيقول:

وإن عناء أن تفهم جاهلا فيحسب جهلا أنه منك أفهم.

وهذا منهج مستعار من سقراط، أنه منهج التهكم السقراطي، فالشاعر يكتشف جهل الآخرين، ثم يكتشف جرأتهم القبيحة في ادعاء العلم، ثم يكشف زيف هذا العلم ويقرر أنه الجهل بعينه. ومن ثم يتحدث عنهم بأسلوب ساخر مليء بالمرارة كما فعل سقراط مع مدعي العلم في أثينا، ويدخل الحيلة لكي يحرر العقول من هذا الجهل، متحملاً العناء الشديد والجهد البالغ.

ثم يتحدث عن شريحة محددة داخل المجتمع، وهم الشيوخ الذين رسخت عندهم

---

٤ حياة الحيوان ج١/ ٤٣،وأيضا تاريخ الخلفاء ص٢٧٥

العادات والتقاليد، فهم لا يستطيعون منها فكاكاً، فتعديل سلوكهم وتغيير عقليتهم يدخل في باب المستحيل، ومحاولة التأثير في أفكارهم البالية، تعد محاولة فاشلة، ومقرر لها السقوط، لأنهم لا يتركون أفكارهم، أو يبدلون عاداتهم، أو ما درجوا عليه من معتقدات إلا مع نهاية المطاف أي الموت، وإذا حاولوا عادوا إلى الجهل ثانية، مثل السقيم الذي طال مرضه، وكلما ظن أنه برأ عاد إلى نكسه، يقول:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه(١)

وهذه الفكرة أخذها إخوان الصفا، وسجلوها في رسائلهم، فهن ينصحون الدعاة أن عليهم الاهتمام بتعليم الشباب وضمهم إلى دعوتهم، ذلك أن صدورهم بريئة وعقولهم نقية مثل الصفحة البيضاء واستقبالهم للحقيقة قويا، بخلاف الشيوخ، الذين اعتقدوا اعتقادات فاسدة رسخت في نفوسهم وتجذرت في ضمائرهم وأخذت بعقولهم [٢].

وثمة فكرة أخرى تتجلى في الصراع الدائر بين جبهتين، جبهة الطبقة المثقفة المستنيرة التي تدعو إلى الحق والخير والعدل داخل المجتمع، وتقوم بدور الإصلاح الاجتماعي والسياسي، وطبقة الأرستقراطية من الشيوخ التي ترتبط مصالحهم بالنظام القائم وتدافع عن ثباته واستمراره، فتعارض أي تغيير أو تبديل، وتعمل على تكريس الواقع، ومناهضة طبقة المثقفين، واتهامهم بكل نقيصة، وأبرزها تهمة الزندقة.

ويواصل مفكرنا دوره الاجتماعي في عملية التوعية والتثقيف، لا يمل من ذلك، ولا ييأس من خوض غمار المعارك، فيكرر التحذير من مصادقة الأحمق الجاهل، لأنه أضر على الإنسان وأنكى من العدو العاقل. يقول:

المرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تمزق

---

(١) أمالي المرتضى جـ١ ص١٠١، وارعوى فلان عن الجهل يرعون ارعواء حسناً، هو نزوعه وحسن رجوعه قال ابن سيده: الرعوى النزوع عن الجهل وحسن الرجوع عنه (لسان العرب مادة رعى) (ط. دار الشعب. القاهرة).
والضنى: السقيم الذي قد طال مرضه وثبت فيه (لسان العرب مادة ضنا).
(٢) رسائل إخوان الصفاء جـ١ ص١١٤ (ط.الزركلي، المطبعة العربية. القاهرة، ١٩٢٨م).

ولئن يعادي عاقلاً خير له ... من أن يكون له صديق أحمق
فارغب بنفسك لا تصادق ... إن الصديق على الصديق مصدق[١]

أما خبرة السنين المتراكمة، وفهمه لحوادث الأيام، فتتجلى عنده في حكم عديدة ولقطات مكثفة، تصور أحوال أفراد المجتمع فيقسمهم إلى قسمين:

- قسم الأموات الذين لحقوا بالآخرة، وهؤلاء ليسوا أمواتاً، بل أحياء في عالم الملكوت بعد أن تحررت الروح من أسر الجسد، وانعتقت من هذا العالم المادي المتغير المليء بالآلام فاستراحت في عالم الخلود.

- وقسم الأموات في عالم الأحياء أو أموات الحياة، الذين يعيشون بيننا، وهم أموات لأنهم قليلو الحيلة في مواجهة المصاعب، ساقطو الهمة واهنو الإرادة، غطتهم مآسي الحياة، وانقطع بهم الأمل والرجاء، فكأنهم جذوع الأشجار الملقاة على قارعة الطريق، أو سقط المتاع في الدور.

يقول:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً ... كاسفاً باله قليل الرجاء[٢]

ولعل الشاعر يقصد بميت الأحياء، الجهال، فهم أموات في الحياة ليس لهم دور، ولا عمل يؤدونه ولا مهمة يقومون بها يعيشون في ظلام الجهل، فأصابتهم الحسرة، وعمهم البلاء، وركبتهم الهموم بعد أن افتقدوا نور العلم الذي يبين معاني الحياة، ويكشف أسرارها، وينير طريق الإنسان.

وتتواتر حصيلة خبرة السنين في شكل نصائح، جمعها من تقلبه بين صروف الدهر ونوائب الأيام، وحكم بليغة من واقعة المعيش، فيحذرنا من عداوة امرئ أنزلنا به مكروهاً أو ظلماً، وإلا جنينا ثمار ما زرعناه، من سيء الأعمال ومكروه السلوك ثم يختم

(١) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٣. حياة الحيوان جـ١ ص٤٢.
(٢) معجم الأدباء جـ١٢ ص٩ (ط. الحلبي، القاهرة، د.ت).

نصيحته بهذه الحكمة الموجزة:

يقول:

من يزرع الشوك لا يجني إلا مزيداً من الأشواك
إذا وترت امرءاً فاحذر عداوته من يزرع الشوك لم يحصد به عنباً[١]

ومن هنا النبع الفياض يواصل الحديث عن رؤيته للحياة، التي قد لا تنصف الإنسان ولا تعطيه ما يرجو، ولا تمنحه ما يحلم به، ففي حركة الحياة تتواصل النكبات نازلة بالمرء، فيتهم البريء رغم براءته، في حين يلبس المذنب ثوب العفة والبراءة.

وهكذا تمضي الأيام ما بين عبوس وبشر، وسقم وصحة، وشر وخير، يقول:

أيها اللائمي على نكد الدهر لكل من البلاء نصيب
قد يلام البريء من غير ذنب وتغطّي من المسيء الذنوب
وتحول الأحوال بالمرء والدهر له في صروفه تقليب[٢]

ثم يصور خبرة أخرى اكتسبها من واقع عاشه في الحبس، فيصور هذه الخبرة أصدق تعبير، لأنها تجربة وجودية وجدانية نفسية عاشها بكل دقائقها وأحداثها، ومن ثم تأتي الصورة معبرة عن مرارة السجن، وقهر الإرادة، وعذابات النفس، والواقع الأليم، والآمال في نسمة الحرية والانعتاق من الحبس، فالكلمات نافذة، والصورة رائعة والحكمة بليغة.

ويصور أهل الحبس أنهم قد ودعوا الدنيا بعد أن فقدوا الأمل في النجاة والتحرر، وعاشوا مثل أبطال أساطير اليونان، فلا هم أحياء ولا هم موتى، فالسجان جاء من عالم آخر، وأهل السجن ينظرون إليه نظرتهم إلى جنس بشري مختلف عنهم، ويظل حديثهم في الصباح والمساء حول حلم رآه أحدهم، فإذا كان يحمل بشارة سارة لم تأت أبداً وتمنعت، وإن كان نذير سوء وقدوم شؤم أتى سريعاً، مهرولاً كالظلم.

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٦.
(٢) المصدر السابق ص٣٧٣.

وهذا تصوير لطبيعة الزمان الشعوري الذي تعيشه النفس البشرية القلقة، المتوترة، المتشائمة التي تتعجل دائما الأحداث، وتعتقد أن الأفراح والمسرات تبطئ في مجيئها مثل السلحفاة، والنوائب تأتي سراعاً مثل غمضة العين.

يقول الشاعر:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا دخل السجان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فجل حديثنا ... إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت لم تأت عجلى وأبطأت ... وإن قبحت لم تحتبس وأتت عجلى[1]

ثانياً: آراء صالح:

١- عقيدته:

عقيدة مفكرنا محل شبهة إن لم نقل تهمة، وبصراحة يرمى بالزندقة، فكثير من المؤرخين يدعون أنه من أنصار الثنوية وبالتحديد يعتنق مذهب المانوية.

والواقع الذي نقرره ولا نجمله، ونصفه ولا نزينه، ونقومه ولا نمدحه، وبعد قراءة متأنية ودراسة مستوعبة ومحايدة قدر الطاقة الإنسانية؛ أن الشاعر مؤمن بالله، ورسوله، وقرآنه، واليوم الآخر، والحساب والثواب والعقاب، داع لمكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وحفظ الأمانة، وقول الصدق، ورفع الصوت ضد السلطان الجائر، والبعد عن التدليس، ورعاية العهد، وحفظ اللسان والصمت عن قول السوء والصبر عند المصيبة.

كل هذه أدلة جلية، تبرهن على قوة عقيدته، وتدخله دار الإسلام من أوسع أبوابها.

والقارئ لشعر صالح بن عبد القدوس – الذي بين أيدينا – لا يجد فيه أي لمز للدين أو غمز، أو طعن في القرآن الكريم، أو استنكار للعقائد أو السخرية منها، أو هدم لأي ركن من أركان العقائد الإسلامية.

---

(١) أمالي المرتضى جـ١ ص١٠١ (ط.السعادة، القاهرة، ١٩٠٧م).

وقد صدق المستشرق الفرنسي رينولد نيكلسون (ت١٩٤٥) حينما قال: «ليس فيما لدينا من شعره إلحاد، بل هو شعر أخلاقي تعليمي برمته» [١].

وافترى على الرجل من قال عنه أنه دس معاني الزندقة في شعره[٢]، بل إن صاحب القول ينبئ أنه لم يقرأ أشعاره ويتعمق في مرماها ودرسها دراسة متعجلة سطحية معولا على أقوال المؤرخين القدامى، وافترى عليه افتراء.

والطابع الغالب على شعره الدعوة إلى مكارم الأخلاق – كما سبق القول – والحديث عن خطورة الجهل وأفعال الجهال والتحذير من مخالطتهم، والدعوة إلى اختيار الصديق المخلص الذي يحفظك إذا غبت، ويؤنسك إذا حضرت. ثم تأكيد قيمة العلم وأهميته، ودوره في تطوير المجتمع.

وسأحاول أن أستعرض بعضا من أشعاره توضح لنا حقيقة عقيدته الإسلامية:

- الإيمان بالله:

في معرض حديثه عن حركة البشر في الحياة، وهم يسعون لطلب الرزق، لأنه لا يأتي هكذا جزافاً، بل يأتي بالجهد والعمل، والسعي الدءوب يقول: إن الله الواحد الأحد هو المالك للأمور ومصرف الأحداث ومبدع الأسباب، الذي يصرف الأرزاق بعلمه، فيعطي هذا ويمنع ذاك:

والناس في طلب المعاش وإنما ... بالجد يرزقه منهم من يرزق
لكنه فضل المليك عليهم ... هذا عليه موسع ومضيق(٣)

ففي البيت الأول تأكيد لقيمة العمل، وأهميته لبناء المجتمع الإسلامي، وإقرار لعظمة الآية القرآنية: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)(التوبة١٠٥). وفي البيت الثاني، يلحظ مدى تأثره بالقرآن الكريم، ففي الشطر الأول «فضل المليك عليهم» ترجمة لقول الحق سبحانه: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)

(١) تاريخ الأدب العباسي ص١٧٦.
(٢) الخربوطلي: المهدي ص١٦٣ (سلسلة أعلام العرب رقم ٥١، القاهرة، ١٩٦٦م).
(٣) تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٣٧٣.

(المائدة ٥٤).

وفي الشطر الآخر، تأثر بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء٣٠].

- الإيمان بالبعث:

وهذا ركن آخر من أركان الإسلام يتعلق بعالم الغيب، ينبئ عن مدى إيمان شاعرنا ومفكرنا وعمقه فهو يؤمن بالقيامة والبعث والحساب، وشعره شاهد على ذلك، يقول:

كـــل إلى الغايـــة محثـــوث والمـــرء مـــوروث ومبعـــوث
فكـن حـديثاً حسـناً سـائراً بعـــدك فالـــدنيا أحاديـــث(١)

ففي البيت الأول: إيمان واضح وأكيد بمسألتين مقررتين في الإيمان: الموت والبعث، وفي البيت الثاني: دعوة لمكارم الأخلاق، فبعد الموت لا يبقى إلا العمل الصالح والسيرة الطيبة، والذكرى العطرة، وهذا ما يجب أن نتركه وراءنا، وهو قريب من حديث الرسول، أو ترجمة له: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به» (٢).

وفي نص آخر يقول:

لا تحقرن من الأيام محتقراً كل امرئ سوف يجزي بالذي اكتسبا(٣)

ففي الشطر الأول: دعوة لاحترام إنسانية الإنسان، بصرف النظر عن شكله أو لونه أو جنسه، وعدم التقليل من شأنه، مهما كانت الدوافع، لأننا جميعاً كأسنان المشط لا نتفاوت إلا بالعمل النافع للمجتمع وللدين، ومن الملاحظ أن الشاعر كان ناظراً لقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. [الحجرات: ١١].

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٤.
(٢) رياض الصالحين ص٢٣٢.
(٣) نكت الهميان ص١٧١.

وفي الشطر الثاني: إيمان كامل بالبعث والحساب، وأن المسؤولية في الإسلام مسؤولية فردية، وهو متأثر تأثراً واضحاً بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

- الدعوة إلى مكارم الأخلاق:

هذه سمة مميزة لشعر صالح بن عبد القدوس، ومعلما واضحا وهي دعوة مستمرة، فيها إصرار وتكرار لا تخلو منها قصيدة من قصائده، وربما تكون دعوته هذه، رد فعل لمنكرات عصره وللخلاعة التي تفشت، والمجون الذي انتشر، والخمر التي أصبحت رمزاً للأرستقراطية على موائد الكبراء والأمراء، والغناء الذي عم الحانات والبيوت والشوارع، والجواري اللاتي ملأن الدور والقصور، شهوة وخلاعة، والقلوب ضعفاً ووهناً والأخلاق ميوعة واضمحلال هذه نقطة.

والأخرى: أن دعوته لمكارم الأخلاق تأتي في إطار دوره كشاعر حكيم ومصلح اجتماعي داخل المجتمع يهمه الارتقاء بمستوى سلوك أفراده، من خلال عملية التنوير التي قام بها مع زملائه، ومحاربة المفاسد الاجتماعية التي عمت، ومقاومة تفشي الجهل والحماقة، والدعوة إلى نشر العلم والخير والفضيلة والأمانة والشجاعة بين أفراد الأمة.

والثالثة: أنه تأثر تأثراً شديداً بالنهج القرآني في تناوله للقضايا الخلقية ودعوته السمحة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإعراض عن الجاهلين.

ودعوة القرآن فيها استمرارية وإلحاح في مخاطبة الإنسان أينما وجد وحيثما كان وآياته تترى حاملة عنصر الترهيب والترغيب، مؤثرة في الإنسان العادي، فما بالك بإنسان له قلب شاعر، وعقل فيلسوف، ولغة حكيم؟!. إنها تنفذ مؤثرة إلى وجدانه، نافذة إلى ضميره، مستقرة في أعماق شعوره.

وأستطيع أن أدلل على ذلك من خلال استعراض قصيدته البائية أو الزينبية، ففيها جمع كل مكارم الأخلاق والقيم الإنسانية تفصيلاً.

والملاحظ في هذه الدعوة أنه استمد عناصرها جميعاً من القرآن الكريم والسنة المطهرة بل استعار العديد من الأوامر الإلهية بكلماتها، وأخذ جملاً كاملة منهما وصاغها في شعره بطريقة لا تخفى على عين القارئ العادي.

والآن هلم إلى الأفكار التي تتضمنتها قصيدته:

- التحذير من أخطار الأعداء:

وابدأ عدوك بالتحية ولتكن ... منه زمانك خائفاً تترقب

واحذره إن لاقيته متبسماً ... فالليث يبدي نابه إذ يغضب

إن العدو وإن تقادم عهده ... فالحق باق في الصدور مغيب

وإذا الصديق لقيته متملقاً ... فهو العدو وحقه يتجنب

- التحذير من كيد المنافقين وحقدهم:

لا خير في ود امرئ متملق ... حلو اللسان وقلبه يتلهب

يلقاك يحلف أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب

يعطيك من طرف اللسان ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ويقول المولى سبحانه في محكم آياته عن المنافقين:

- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُم مِّنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

- معاملة الناس بالحسنى والصفح عنهم عند الإساءة:

وصل الكرام وإن رموك بجفوة ... فالصفح عنهم والتجاوز أصوب

ويقول تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة :١٣].

- صلة الرحم:

واخفض جناحك للأقارب كلهم بتذلل واستمع لهم إن أذنبوا

ويقول المولى سبحانه:

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء :١].

- التحذير من مصاحبة الكذوب:

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا إن الكذوب يشين حراً يصحب

ويقول المولى سبحانه:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام :١١].

- حفظ اللسان:

واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب

ويروي أبو هريرة عن الرسول ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**» (١).

وعن معاذ بن جبل عن الرسول ﷺ: «**إنك لن تزال سالماً ما سكت فإذا تكلمت كتب لك أو عليك**» (٢).

- كتمان السر:

والسر فاكتمه ولا تنطق به إن الزجاجة كسرها لا يشعب

وكذاك سر المرء إن لم تطوه نشرته ألسنه تزيد وتكذب

وروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود**» (٣).

---

(١) جامع العلوم ج٢ ص٢٣٠.
(٢) المصدر السابق ص٢٣٣.
(٣) أدب الدنيا والدين ص٢٧٩.

- البعد عن البخل:

لا تحرصن فالحرص ليس بزائد في الرزق بل يشقي الحريص ويتعب

ويقول المولى سبحانه:

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ.. ﴾ [الإسراء ٢٩].

- أداء الأمانة ومراعاة العدل:

وارع الأمانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطب لك مكسب

ويقول المولى سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون :٨٧].

﴿لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ [الأنفال : ٢٧].

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة : ٨].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٨].

- الصبر على المصائب:

وإذا أصابك نكبة فاصبر لها من ذا رأيت مسلماً لا ينكب

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة :١٧٧].

- التضرع إلى الله وقت الشدائد:

وإذا رميت من الزمان بريبة أو نالك الأمر الأشق الأصعب

فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

ويقول المولى سبحانه:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

- استجابة دعاء المظلوم:

واحذر من المظلوم تهماً صائباً واعلم بأن دعاءه لا يحجب

ويقول المولى سبحانه:

﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء:٢٣]

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

ثم يختم الشاعر هذه الدعوة الشاملة للخير والبر والكرم والصبر والأمانة، وبصفة عامة للفضائل.

بقوله:

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي والنصح أغلى ما يباع ويوهب[١]

إنه توجه للإنسان الكلي، في كل زمان ومكان، أن يتقبل هذه النصائح بلا أجر وبلا ثمن وبلا انتظار لمقابل، لعله يقبلها ويعمل بها.

ومن الجدير بالإشارة، أن الشاعر تمثل موقف الأنبياء، حينما وقفوا ناصحين لقومهم، وهم يبلغون كلمة الله، وهدايته، ورسالته لعلهم يهتدون، ويتبعون الطريق المستقيم، وفي هذا يقول سبحانه على لسان رسوله صالح:

﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:٧٩].

٢- منهجه في طلب العلم:

كان لمفكرنا منهج، وخطة عمل واضحة في عقله يتبع هديها ويتلخص عناصر هذا المنهج في الآتي:

- البحث المستمر عن جذور الأفكار:

(١) القصيدة بطولها في كتاب عصر المأمون جـ٢ ص٤٠٥-٤٠٦. وحياة الحيوان جـ١ ص٤٤-٤٥.

الأفكار التي نتعامل معها في حياتنا اليومية، ليست وليدة اللحظة، ولا منقطعة الصلة بالماضي، ولكنها وليدة أفكار أخرى وابنة الماضي، وخلاصة الحاضر.

وكل الأفكار التي تصادفنا مثل شجرة لها جذور قوية، ممتدة إلى أعماق الأرض ولكي نتفهمها، فعلينا البحث عن أصلها الذي نبتت منه، ومصدرها الذي منه تفرعت. يقول:

لن تبلغ الفرع الذي رمته إلا ببحث منك عن أسه[١]

- التفكير الدائم قبل الخوض في الكلام:

هذه نقطة تعليمية مهمة، وتوجيه تربوي للشباب في عصره الذي يطلب العلم. ويناقش غيره، ويدخل في نقاش مع خصمه، ويجادل من أجل الوصول إلى الحقيقة فيرشده الشاعر إلى الطريق السليم، وينبهه إلى مغبة التسرع في الكلام، ويمنعه من إلقاء القول دون تقليبه على وجوهه المختلفة، لأن هذا القول، معرض لحجج الخصوم، وتفنيد المنافسين، وبراهين المجادلين.

ومن يقع في هذا فهو غير حازم لأمره، ضيق الأفق، فج الرأي، سطحي التفكير يقول:

إذا قلت قدر عن قولك عرضة لبادرة أو حجة لمخاصم
وإن امرءاً لم يحسن قبل كلامه الجواب فينهى نفسه غير حازم[٢]

- تقدير قيمة العلم:

أشادت الأديان بقيمة العلم، وركز على ذلك الدين الإسلامي، لاسيما أحاديث الرسول.

ومفكرنا يسير على النهج نفسه فيعلي من شأن العلم، ويتفهم أبعاد مسئولية العلماء تجاه المجتمع الذي يعيشون فيه، فيدعوهم إلى التبصر في هذه المسئولية وتحمل نتائجها، ويطالبهم بطلب أفضل العلوم وأكرمها، لأنها متفاوتة الدرجات فيما بينها، وعليهم أن يبلغوا الذروة في ذلك. يقول:

---

(١) جامع العلم جـ٢ ص٣٦.
(٢) معجم الأدباء جـ١٢ ص١٠.

وإذا طلبت العلم فاعلم أنه حمل فأبصر أي شيء تحمل
فإذا علمت بأنه متفاضل فاشغل فؤادك بالذي هو أفضل[١]

وهنا ملحظ لطيف فالشاعر لا يحدد طبيعة العلم الأفضل، ويترك ذلك للمشتغل به حسب رؤيته الخاصة، واستعداده الشخصي، وحاجات المجتمع في ما يكون الأفضل أهو علم الطب، أو الهندسة، أو الزراعة، تبعاً للمشكلات الاجتماعية الموجودة وبما يقدمه هذا العلم المطلوب من حلول عاجلة لمشكلات المجتمع، في حين أن عصر الشاعر والعصور التالية كان يؤمن بأن العلم الديني هو أفضل العلوم ولاسيما علم الفقه لذلك تتضح الرؤية الشاملة عند مفكرنا، وسعة أفقه ونظرته العميقة المستنيرة لأحوال المجتمع، التي سبقت عصره، إذا قيست بمعاييره.

- **أهمية التعليم في الصغر:**

كل علماء النفس مجمعون على أهمية التدريب العملي، والتعليم النظري للطفل لأن هذا أجدى، وأثبت للخبرات، وأرسخ للمعارف.

والشاعر يلمس هذه الفكرة التربوية بأسلوبه السهل، وصوره البديعة، فيرى أن التربية والتعليم للطفل في الصغر، حينما تتعهد، يد الرعاية، وتحنو عليه العقول المتفتحة، وتوجهه الوجهة السليمة، وهو حينذاك النبتة الصغيرة التي نوليها العناية والاهتمام، بتهيئة التربة، وتوفير الماء، فتورق وتينع حتى تصبح شجرة سامقة، تؤتي ثماراً ناضجة. يقول:

فإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يبسه(٢)

وقد أشرت سابقاً إلى تأثر إخوان الصفاء بهذه الفكرة، وركزوا عليها في رسائلهم ونبهوا على دعاتهم بأن يولوا الشباب كل اهتمام، ويعتنوا بهم أعظم الاعتناء، لأن عقولهم

(١) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٥.
(٢) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٢. وأيضاً حياة الحيوان الكبرى جـ١ ص٤٣.

مثل الصفحة البيضاء[١]

٣- رأيه في عصره:

كل مفكر يعيش في مجتمع، له وجهة نظر فيما يجري حوله، فقدرته على تجاوز السطح، والغوص إلى الباطن، تساعده أن يستشف مجريات الأمور وما وراء الأحداث، بأدواته الفنية المتاحة، ومنهجه التحليلي، يصبح له رأي محدد فيما يراه ويبصره. ومن ثم تأتي أهمية هذا الرأي، والرؤية التي يقدمها لنا.

ومفكرنا عاش في العصر العباسي الأول، والملاحظ أنه لم يكن راضياً بالمرة عن هذه الأحوال، فما يراه منكور، وما يبصره مرفوض، وما يسمعه غث، وما يقرأه لا يسمن ولا يغني من جوع. لذلك اعتزل المجتمع، ولزم بيته في قراءة دائمة أو تأمل في الذات وفيما حوله – لا يزار ولا يزور – وهذه هي السعادة بعينها.

وأصبح لا يعنيه أمر هؤلاء الكبراء والأمراء والوزراء، وأتباعهم من الجند وأعوان السلطة سواء أقاموا في بغداد، أم شدوا الرحال إلى أقطار الأرض. يقول:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي ... فتم العز لي ونما السرور
وأدبني الزمان فليت أني ... هجرت فلا أزار ولا أزور
ولست بقائل مادمت حياً ... أقام الجند أم نزل الأمير[٢]

ثم يتابع توضيح مدى علمه وإحاطته بالرجال الذين يعيشون معه في مجتمعه، فهو بهم عليم، مكتشف لأبعاد شخصيتهم، وباطنهم وجموحهم وأطماعهم، ففيهم خسة الذئاب، وغدر الكلاب، وبلادة الحمير. يقول:

ومن يك جاهلاً برجال دهر ... فإني عالم بهم خبير
كأنهم إذا فكرت فيهم ... ذئاب أو كلاب أو حمير[٣]

---

(١) رسائل الأخوان جـ١ ص١١٤.
(٢) نكت الهميان ص١٧١، الوافي بالوفيات جـ١ ص١٧١.
(٣) تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٥.

وهذا يبين مدى سوء ظن مفكرنا برجال عصره، ونظرته الدونية لهم. ولا شك أنها نظرة تشاؤمية عدمية تنظر للمجتمع من جانب واحد، هو الجانب المظلم، وترصد السلبيات التي تفشت فيه دون أن تلاحظ العديد من الإيجابيات في الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية.

وفي قصيدته القافية الرائعة التي امتلأت بالحكم، والنظرة العميقة للنفس البشرية ووقائع المجتمع والحياة، يسجل رأياً آخر في رجال عصره، أقسى من الرأي السابق وأعنف؛ فيرى أنهم جميعاً يتصفون بالخداع في سلوكهم والكذب في أقوالهم. أما الذين يتسمون بالصدق والنزاهة والأمانة، والأخلاق العالية فقد مضوا من هذا المجتمع وولوا سواء بالرحيل أو بالموت.

يقول:

بقي الذين إذا يقولوا يكذبوا ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا[1]

ثالثاً: مقتل صالح بن عبد القدوس:

- محاكمته والتهم الموجهة إليه وتفنيدها:

روى العديد من المؤرخين قصة محاكمة صالح بن عبد القدوس، أمام الخليفة المهدي وأوردوا جملة التهم التي وجهت إليه، ولى عدة ملاحظات:

١- من الملاحظ أن أغلبية المؤرخين قد ذكروا التهم دون تفنيدها أو تمحيصها، وإنما نقل اللاحق عن السابق، دون إضافة تذكر، ويلاحظ أن معظم المؤرخين المتأخرين توقف دورهم على نقل القصة دون نقدها أو الشك فيها.

٢- إن عدداً محدوداً منهم هم الذين صوروا قصة المحاكمة بتفاصيلها كاملة، وهم: ابن المرتضى الشيعي (ت ٤٣٦هـ)، وابن الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، وابن

(١) حياة الحيوان الكبرى ج١ ص٤٣. "قد كان بعض العلماء يشبه حبيب بن أوس الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال، ويقول: لو أن صالحا نثر أمثاله في شعره وجعل بينهما فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مدّ ميدانه وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى". (عبد الله بن المعتز: كتاب البديع ص٢. تحقيق اغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٢م).

عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ).

٣- إن تفاصيل المحاكمة اختلفت من مؤرخ إلى آخر رغم الفارق الزمني القصير بينهم.

٤- إن أغلبية المؤرخين يقررون أن الخليفة قد قتله بسيفه، وهذا له دلالة عميقة سوف يأتي ذكرها.

أ - رواية ابن المرتضى الشيعي:

كان صالح بن عبد القدوس، متظاهراً بمذاهب الثنوية، وأنه رؤى يصلي صلاة تامة الركوع، والسجود، فقيل له ما هذا ومذهبك معروف؟

قال: سنة البلد، وعادة الجسد، وسلامة الأهل والبلد.

ويقال: أن المهدي امتحنه فرمى إليه بكتاب، وقال له: اقرأ

قال: وما هو؟

قال: كتاب الزندقة؟

قال: أو تعرفه يا أمير المؤمنين إذا قرأته؟

قال: لا

قال: أفتقتلني على مالا تعرف.

قال: فإني أعرفه.

قال: فقد عرفته ولست بزنديق، وكذلك أقرؤه، ولست بزنديق.

ثم ذكر المرتضى رواية أخرى:

أن صالحاً لما نوظر فيما قذف به من الزندقة بحضرة المهدي قال له المهدي:

ألست القائل:

رب سر كتمتـــه فكـــأني أخـــرس أو ثنـــى لســـاني خبـــل

ولـــو أني أبـــديت للنـــاس لم يكـــن لي في غـــير حـــبس أكـــل

قال صالح: فأني أتوب وأرجع.

فقال له: هيهات ألست القائل:

والشـيخ لا يـترك أخلاقـه حتـــى يـــوارى في ثـــرى رمســـه

إذا ارعـوى عـاد إلى جهلـه كـــذلك الضـــنى عـــاد إلى نكســـه

ثم قدم فقتل، ويقال: إنه صلبه على الجسر ببغداد.[1]

- ولنا على هذا العرض جملة من الأدلة لتفنيد هذا الكلام:

١- ما معنى أنه كان متظاهراً بالثنوية؟ وما الدليل على ذلك؟ وما مظاهر اعتناقه هذا المذهب؟

الحقيقة أنه لم يكن مانوياً، ولكن رمى من قبل خصومه بهذه التهمة، ثم إنه كمفكر بعيد النظر، واسع الإطلاع، كان يقرأ في المذاهب المختلفة، ومنها المانوية، علاوة على أنه كان يميل إلى العزلة والزهد، والانطواء على الذات، وفي الوقت نفسه يهاجم السلطة السياسية وعلى رأسها الخليفة فرمى بالتهمة.

٢- الشاعر كان يصلي صلاة تامة، هذا هو المشاهد في الواقع المرئي، والذي يراه الناس جميعاً، أما هذا السجع والجناس الذي أورده ابن المرتضى، فأمر غير مقبول في العقل، وأعتقد أن هذا القول الذي ينسب لصالح مدسوس، فليس هناك ما يجبره على أن يصلى صلاة تامة الركوع، لاسيما وهناك عديد من أعلام العصر العباسي، كانوا لا يصلون جهاراً نهاراً، ويرفضون الصلاة والصيام. ثم إن هذا التصرف على فرض صحته، من شيم المنافقين، وأشعاره توضح بجلاء مدى كراهيته لهذه الفئة، ومهاجمته لها مهاجمة شديدة وقاسية، فضلاً عن تميز شخصيته بالوضوح والنزاهة والصراحة، فلماذا يعلن غير ما يبطن؟ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى ألا يكفينا الظاهر المرئي، وهل نحن مطالبون بالكشف عن ضمائر

1 ـ أمالي المرتضى ج١/ ١٠٠-١٠١

الناس، وهتك أستار مكنوناتهم؟

لقد أنكر الرسول ﷺ على أسامة بن زيد قتله للرجل الذي قال: لا إله إلا الله، وقال له: هلا شققت عن صدره؟[١]

وقال الرسول في حديث آخر: «**إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم، وأموالهم**»[٢].

والعجيب أن الخليفة المهدي له كلام طيب بهذا الخصوص، يقتدي فيه بحديث الرسول ﷺ، ولكن شتان دائماً بين القول والفعل، والكلام والعمل، والنظرية والتطبيق، وهذه إحدى أسباب أزمة الفكر العربي والإسلامي.

يقول المهدي: «إنما الأبدان لنا وليس لنا القلوب، ومن استتر عنا لم نكشفه ومن بادأنا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته. فإني أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استرحم»[٣].

٣- إن رد الشاعر على الخليفة المهدي بشأن كتاب الزندقة، كلام منطقي ومقدماته تتسق مع نتائجه. فكيف يقتله على كتاب لا يعرفه، وإذا كان يعرفه فلماذا يقتله وقد قرأه مثله.؟!!

٤- على فرض التسليم بتهمة الزندقة، ألم يعلن الشاعر رجوعه وتوبته، وهذا كاف في حد ذاته، والتوبة من مكفرات الذنوب ومن أوامر الإسلام.

ثم ما المانع أن يكون عند الشاعر إطلاع على بعض العلوم التي لا تجد قبولا في عصره أو يعتقد في منظومة من الأفكار التي لا تروق بعض الفقهاء.؟

---

(١) جامع العلوم جـ١ ص٣٠٥-٣٠٨.
(٢) جامع العلوم جـ١ ص٣٠٥-٣٠٨.
(٣) زهر الآداب جـ٢ ص١٩ (ت. زكي مبارك، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣١م).

وهذا لا يخرجه من حظيرة الإسلام. ولماذا نؤول هذا العلم أنه الزندقة؟

ولا نؤوله لصالحه لاسيما والشواهد الجلية والأدلة الحسية أمامنا وبين أيدينا تؤكد أنه مسلم حسن الإسلام. ومؤمن صادق الإيمان. وأشعاره السابقة دليل صادق على ذلك.

- أورد ابن المرتضى ثلاث محاورات بين صالح بين عبد القدوس وأبى الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ)، وهي تتضمن اتهامات ظاهرة.

ومن الجدير استعراض هذه المحاورات ثم الرد عليها:

- المحاورة الأولى:

مات ابن لصالح بن عبد القدوس فمضى إليه أبو الهذيل ومعه ابن أخته النظام ليعزيه فرآه منحرفاً، فقال له العلاف: لا أعرف لجزعك وجهاً، إذا كان الناس عندك كالزرع.

فقال له صالح: يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك. وهو كتاب وضعته، من قرأه يشك فيما قد كان حتى يتوهم أنه لم يكن. وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان.

فقال له: فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت، وإن كان قد مات، وشك أيضاً في أنه قد قرأ الكتاب وإن كان لم يقرأه[١].

ولي عدة ملاحظات: من المحتمل، بل من المرجح أن تكون الرواية ملفقة من أولها لآخرها لعدة اعتبارات:

- لم يذكر المؤرخون أن صالح بن عبد القدوس كان له أسرة أو أبناء إلا في هذه الرواية.

- لم يذكر واحد من المؤرخين، ما مضمون هذا الكتاب، وما الأفكار التي يشتمل عليها وأين هذا الكتاب؟ وإذا وجد هذا الكتاب في عصرهم فلماذا لم ينقل إلينا فيما نقل

(١) أمالي المرتضى جـ١ ص١٢٦-١٢٧، والرواية مكررة في أغلبية أدبيات الفكر العربي (تلبيس إبليس ص٤٠، وفيات الأعيان جـ١ ص٤٨٠، نكت الهميان ص٢٧٩).

من كتب، ومن أشعاره التي وصلتنا.

- قول العلاف: لماذا تجزع إذا كان الإنسان عندك كالزرع. معناه أن مفكرنا ينكر القيامة والبعث، وهذا اتهام ظالم ومرفوض، وتلفيق باد للعيان، والشعر الذي تركه ومر بنا يؤكد أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وبالبعث والحساب. وعلينا أن نقبل ما بين أيدينا، ونرفض غيره.

- الرواية المذكورة مضطربة في سياقها، مختلفة فيمن رد على صالح، بعض المؤرخين ينسب القول للعلاف [١] والآخرون ينسبون ذلك للنظام[٢].

- **المحاورة الثانية:**

يقال إن أبا الهذيل ناظر صالح بن عبد القدوس فقطعه، ثم قال على أي شيء تعزم يا صالح. فقال: أستخير الله وأقول بالاثنين.

فقال له: فأيهما استخرت لا أم لك؟[٣]

والرواية متهافتة، ومرفوضة، لأنها متناقضة، والتناقض واضح في الادعاء المنسوب إلى الشاعر، أنه قال: أستخير الله، وأقول بالاثنين.

فهذه قضية متناقضة، لأنها تثبت صفة الوحدانية وتنفيها في آن واحد.

وإلا كيف يعترف أنه سيتوجه إلى الله الواحد الأحد، ثم بعد هذا الإيمان يعترف بإلهين آخرين، ثم إن لفظ الاستخارة، مستعار من أقوال الرسول ﷺ، وأفعاله، وصلاة الاستخارة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم.

والرواية أخيراً موضوعة لكي توضح مدى تفوق العلاف وتغلبه على خصومه في الجدل أكثر مما هي موضوعة لاتهام صالح.

---

(١) ذهب إلى هذا ابن المرتضى في الأمالي جـ١ ص١٢٦، وابن خلكان في وفياته جـ١ ص٤٨٠.

(٢) وذهب إلى هذا ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص٤٠، سرح العيون ص١٥٥، أما صاحب نكت الهميان فذكر القولين ص٢٧٩.

(٣) أمالي المرتضى جـ١ ص ١٠٠.

- المحاورة الثالثة:

روى أن أبا الهذيل ناظره في مسألة مشهورة في الامتزاج الذي أدعوه بين النور والظلمة فأقام عليه الحجة، فانقطع، وأنشأ يقول:

أبا الهذيل هداك الله يا رجل فأنت حقاً لعمري مفصل جدل[1]

والرواية كسابقتها متهافتة، وقد وضعت للإعلاء من شأن العلاف، وتفوقه على خصومه في الحوار والجدل، شأن المؤرخين حينما يبغون من رفع قيمة عالم وإظهار مواهبه، وإلا فما «المسألة المشهورة» التي دار حولها الجدل؟ وثانياً: أين ردود صالح على العلاف؟

أما بيت الشعر، فهو، ومدح صديق لصديقه وشهادة رجل مستنير، متفتح العقل واسع الأفق، لزعيم من زعماء الكلام، وشيخ كبير من شيوخ الاعتزال.

إذاً فهذا وصف لواقع موجود، وتصوير صادق لمواهب العلاف العلمية ويدل على وفاء صالح لصديقه، والاعتراف بلباقته وسرعة بديهته، وتفوقه على خصومه.

ب - رواية الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) وابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ):

اتهم الخليفة المهدي، صالح بن عبد القدوس، بالزندقة، وعقد له محاكمة فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه، وحسن بيانه، وكثرة حكمته.

فأمر بالإفراج عنه، فلما ولى طلبه ثانية وقال له: ألست القائل؟

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذلك الضنى عاد إلى نكسه

قال: بلى

قال: فأنت لا تترك أخلاقك، ثم أمر به فقتل، وصلب على الجسر.

وفي رواية أخرى، يقال: أن المهدي أبلغ عنه أبيانا يعرض فيها بالنبي ﷺ فأحضره، وقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟

---

(١) المصدر السابق.

قال: لا والله يا أمير المؤمنين، والله ما أشركت بالله طرفة عين، فاتق الله ولا تسفك دمي على الشبهة، وقد قال النبي ﷺ: «**ادرؤوا الحدود بالشبهات وجعل يتلو عليه القرآن حتى رق له وأمر بتخليته، فلما ولى، رده وطلب منه أن يقرأ، قصيدته السابقة الذكر، حتى بلغ والشيخ لا يترك أخلاقه....، فأمر به فقتل**»[١].

ويبقى لي حق النقد والتعقيب:

١- فالجزء الأول من الرواية قمت بالرد عليه سابقاً، ثم أن ما ورد فيها من مدح الخليفة المهدي لهذا المفكر، وإعجابه بعلمه، ومنطقه السليم وحسن عرضه، علاوة على أدبه وأخلاقه وشعره المرصع بالحكم، واعترافه بفضله، كل هذا دليل على علو مكانة صالح، ورفعة موقعه الفكري بين معاصريه، وأنه أحد الشعراء المشهورين.

٢- أما عن الجزء الثاني، فهو ناطق بعمق إسلام الرجل، وحفظه للقرآن، وشدة تمسكه بالسنة، ومعرفته بالفقه وأصوله.

ومن يسمع هذا الحوار، يشعر شعوراً أكيداً، بصدق قول صالح، وقوة إحساسه وعمق شعوره، وصفاء ضميره، ونقاء سريرته، وتلقائية خواطره، ورده على الخليفة أبلغ من أن نحلله، وأقوى من شرحه، فهو ينكر إنكاراً لا لبس فيه ولا مزيد عليه، إشراكه بالله في أي وقت من الأوقات، وعبر عن ذلك بقوله: «طرفة عين» .

- يطلب من الخليفة ألا يسفك دمه على الظن والشبهة، وعبر عن ذلك بقوله اتق الله، منطلقا من قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾.

- استشهاده بالقرآن الكريم والسنة المطهرة.

٣- إن التهمة اختلفت من رواية إلى أخرى، ففي الأولى كانت التهمة «الزندقة» دون

---

(١) تاريخ بغداد جـ٩، نقلاً عن معجم الأدباء جـ١٢ ص٦-١٠، تاريخ ابن عساكر جـ١ ص٣٧١-٣٧٢. وأيضا حياة الحيوان جـ١ ص٤٣.

(٢) الحجرات الآية ١٢، ٦.

أن نتبين ماذا يقصد بها بالتحديد.

وفي الرواية الأخرى تهمة إنشاد أبيات من الشعر ينال فيها من الرسول ﷺ وإنكار الشاعر ذلك بشدة وبقوة.

وإذا كانت هذه التهمة صادقة، فأين هذه الأبيات المزعومة، ولماذا لم تنقل مع باقي الأشعار، وهذا دليل على أن الاتهام ملفق.

٤- من يقارن بين النصين، يدرك أن ابن عساكر الدمشقي نقل الكلام نفسه عن البغدادي دون زيادة، أو نقصان، كما هي عادة معظم المؤرخين القدامى، ورواه كما هو دون أي تمحيص أو تحليل. وهذا يدل على أن ابن عساكر لا يقف موقف المتشكك من عقيدة صالح بقدر ما يقف، موقف الراوي الذي يروي روايات عدة دون الوقوف أمامها بالتمحيص أو الغربلة، فهو حاطب ليل ليس غير.

ثم زاد ابن عساكر رواية ثالثة – وهذا دليل على مزيد من الاضطراب. فقال:

قتله المهدي على الزندقة، وكان حكيم الشعر زنديقاً متكلماً يقدمه أصحابه في الجدال على مذهبهم. وقد حكى أحد رجال شرطة المهدي أرسل من قبله للقبض عليه، فقال:

أمرني المهدي بالمسير إلى دمشق، وكتب لي أمراً بأن أدخل إلى دمشق وأذهب إلى حانوت عطار، وفيه سأجد رجلاً كثير الجلوس فيه، أشيب ناصل الخضاب[1] يقال له صالح.. فلما مضيت حتى دخلت دمشق، وأتيت الحانوت فإذا الرجل فيه فأخذت بتلابيبه، وأخرجت أمر الخليفة فقرأته على الناس فخلوا بيني وبينه ووضعت الحديد في رجليه، ثم حملته إلى بغداد حتى أدخلته على المهدي فقال له:

أنت صالح بن عبد القدوس؟

قال نعم. قال: فزنديق.

قال: لا، ولكني رجل شاعر أفسق في شعري.

---

(٢) أي تغير لون اللحية وخروجها من الخضاب.

فقال: إنه أقر، فالتوى ساعة ثم قرأ كتاب الزندقة ثم قال: يا أمير المؤمنين إني أتوب فاستبقني.

فقال له: أنشدني قصيدتك السنية، فلما أتمها. قال لي: امض به إلى المطبق. (أي السجن) فلما مضيت وقربت من الصحراء، أمرني فرددته وقال له: يا صالح ألست الذي يقول: والشيخ لا يترك أخلاقه؟

قال: بلى.

قال: كذلك لا تدع أخلاقك، خذوه، فقام أربعة من الخدم، فأخذ كل واحد منهم ربعه، ثم ضربه المهدي بسيفه ضربة واحدة جعله قطعتين ثم أمرني فصلبت نصفه في الجانب الشرقي، والنصف الآخر في الجانب الغربي[1].

ولي حق النقد والتعقيب فأقول:

١- إن تهمة الزندقة مكررة، دون توضيح لحقيقتها، لكن يتضح من ذلك أن مفكرنا كان أحد رؤساء المتكلمين، وهو مقدم من قبل أصحابه، فهو رجل بارز في المجتمع وهذه مسألة قد تغري به النفوس الضعيفة للدس عليه، والكيد له لاسيما وأنه كان يعظ الناس، ومن ثم فمجال اتهامه، واسع الأبواب، متعدد الثغرات للنفاذ منه.

٢- يقال إن مفكرنا اعترف «أنه يفسق في شعره» ، وهذه تهمة باطلة وألف باطلة، وقد سبق عرض أشعاره، ووجدنا أن مضمون شعره يدور كله حول مكارم الأخلاق، والحث على الفضيلة والدعوة إلى الخير والصدق والكرم والشجاعة، والتحذير من المنافقين واللئام، والنهي عن الكذب والبخل والجبن والخداع.

فأين هذا: «الفسوق» ؟ إنها تهمة ملفقة، وواضحة التخليط.

ثم تمضي الرواية بعد ذلك غير متسقة المعاني، ودون ربط منطقي بين عناصرها فنفاجأ بتهمة أخرى، تلقى إلقاء ودون تمهيد، فتقول الرواية «إنه اعترف ثم التوى ساعة، ثم قرأ

(١) تاريخ ابن عساكر ج٦ ص٣٧١-٣٧٣.

كتاب الزندقة» .

وهنا ندرك مدى التلفيق في الرواية التي تريد أن تجمع له اتهامين؛ الفسوق في الشعر، وقراءة كتاب الزندقة الذي لا نعرف عنه شيئاً، وهو يشبه «عنقاء» العرب التي يتحدثون عنها دون أن يراها أحد.

٣- إذا كان لصالح أشعار فيها فسوق وخروج عن الآداب والذوق العام، فلماذا لم يشر إليها المؤرخون، وهم قد رووا أخس الشعر لبشار بن برد وغيره؟ وكتاب الأغاني مليء بالشعر الفاحش، فلماذا لم ترو لنا أشعاره ثم إن الخطيب البغدادي، كان أقرب عصراً من صالح، فلماذا لم يتكلم عن هذه التهمة، علاوة على ذلك، فإن ابن عساكر تفرد بهذه التهمة.

٤- ثم نختم الرواية الملفقة، بفرية كبيرة، المقصود منها تبيان مدى قوة الخليفة وشجاعته، فتقول – أي الرواية – إنه ضربه بالسيف «فجعله قطعتين» ، وهذا أمر خرافي، غير عقلي، ولم يشاهد في الواقع المحسوس، وهو تزييف ظاهر.

ج- استعراض باقي آراء المؤرخين:

١ - قال أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ):

إن صالح كان يجتمع مع طائفة من أعلام المجتمع البغدادي، وقياداته الفكرية فيهم المعتزلي، والمتشكك، وأصحاب التناسخ ولم يحدد طبيعة التهمة الموجهة إلى صالح، وقال عنه هو وعبد الكريم بن أبي العوجاء (وهو متهم من قبل المؤرخين بأنه دس مئات الأحاديث على الرسول ﷺ).

أنهما صححا التوبة[١]، ولا يعرف من أي شيء تاب صالح بن عبد القدوس.

٢- ابن النديم (ت ٣٨٥هـ):

ذكر أن صالحاً من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة[٢].

---

(١) الأغاني جـ٣ ص١٤٧.

(٢) الفهرست ص٤٧٣.

٣- أبو العلاء المعري (ت٤٤٩هـ):

قال: إن صالحاً اشتهر بالزندقة ولم يقتل، حتى ظهرت عنه مقالات توجب ذلك أما عن رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل، فهو على سبيل المخادعة[١].

٤- أما رواية ياقوت الرومي (ت٦٦٢هـ) وشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ):

وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) وصلاح الصفدي (ت٧٦٤هـ)، والسيوطي (ت٩١١هـ) فهم جميعاً ينقلون عن الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، وابن عساكر الدمشقي (٥٧١هـ) نقلاً حرفياً ولا يضيفون جديداً. ويتفقون جميعاً على تهمة الزندقة الموجهة إليه وإنه قتل بيد الخليفة المهدي.

٥- أما ابن نباته (ت ٧٦٨هـ):

فيتهم شاعرنا أنه على مذهب السفسطائية الشكاك الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن ما نستبعده يجوز أن يكون على ما نشاهده، ويجوز كونه على غير ما نشاهده، وحال اليقظان كحال النائم[٢].

وهذا اتهام متهافت وباطل، لأنه على فرض صحته، فهو لا يقلل من إيمان مفكرنا ولا يفسد عقيدته، ولا يخرجه من دائرة الإسلام. فهذا منهج في التفكير يمثل نوعاً من الشك للوصول إلى الحقيقة واليقين.

٦- يلخص المستشرق نيكلسون التهمة التي وجهت إلى صالح بأن: «مبدأه الشعبي اعتبر خطراً ولو أن الوعاظ كصنف كانوا متفقين مع التنظيم الديني ولم يحتجوا على التصرفات الدينية السيئة... إن المذهب السني كان مستعداً لربط «العقل الفلسفي» بعدم الإيمان الإيجابي ويبدو أنه راح ضحية مثل هذا التحيز فقد اتهم بالمانوية[٣].

والحقيقة لا أفهم ماذا يقصد «بالمبدأ الشعبي» الذي هو خطر، ! هل يقصد أن

---

(١) رسالة الغفران ص٣٧٢.

(٢) سرح العيون ص١٥٥ (ط. الموسوعات، القاهرة، ١٣٢١هـ).

(٣) تاريخ الأدب العباسي ص١٧٥ ت. صفاء خلوصي، المكتبة الأهلية، بعداد، ١٩٦٧م.

مفكرنا كان من دعاة التمرد على السلطة السياسية، وأنه من أصحاب الدعوة للعدل الاجتماعي، ورفع الظلم الواقع على الشعب، والدعوة إلى المساواة بين القوميات الإسلامية والمطالبة بحقوق الشعوب في حياة كريمة تليق بكرامة الإنسان الذي كرمه الله على سائر الموجودات، ويحارب الطمع البشري، والاستبداد السياسي، المتمثل في سيطرة الدولة العباسية على الحكم، وصبغه بالصبغة الدينية المقدسة، لإضفاء جو من الكهنوت على حكمهم يسهل لهم مهمة استمرار الحكومة، واستئثارهم بالحكم.

هذا ما أفهمه على الأقل.

وهو دور ليس منكوراً، بل يشرف بن عبد القدوس أنه كان يطالب بالحق العام والخير والعدل للشعوب الإسلامية، وهذه المبادئ أصول أساسية في العقائد الإسلامية.

أما النقطة الأخرى، فهي توضح أن التفكير الفلسفي الذي اتسم به عقل مفكرنا نظر إليه من قبل أنصار المذهب السني، نظرة الخوف وعدم الرضا وأن هذا المنحى في التفكير يقلل من درجة إيمانه، ومخالف للعقائد الإسلامية.

ورداً على هذا الاتهام نقول: بأن المسألة كان لها بعد اجتماعي، بمعنى أن العقل الفلسفي عقل متمرد، متسائل لا ينصاع بسهولة، ولا يشترى ولا يباع من قبل أصحاب السلطة السياسية فهو عقل رافض لكل أنواع الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي فهو لا ينساق وراء المظاهر الباذخة للدولة، ولكنه يرى الملايين التي تعيش على الكفاف. ويرى مئات الرؤوس التي تتطاير بإشارة من عين الخليفة بلا سبب مفهوم. ومن ثم فرجال الدين المؤيدون للسلطة السياسية، كانوا جاهزين لاتهام أي مفكر حر، مناضل عن حق الشعوب في حياة كريمة، ويتهمونه بالهرطقة والتجديف على الدين، مثل محاكم التفتيش في أوروبا.

لذلك فرأي نيكلسون صواب، وأوافق عليه.

٧- أما كارل بروكلمان فيرى أن صالحاً كان يلقى دروساً بالبصرة «في فضائل مذهب

الثنوية الفارسي»[١].

وهذا كلام مرفوض، ومتهافت؛ فهو مرفوض لأن هذا المستشرق يعالج الموقف في عجالة واضحة لا تتجاوز الأسطر القليلة، ولا يتعرض لوقائع القضية بقدر من الشرح والتفصيل، وليس من شأنه إيضاح الحق كما هو في الواقع، ولأنه يكتب «فهرسا» للأدب العربي.

ومتهافت لأنه من غير المنطقي، أن يجلس واعظ من وعاظ المسلمين في مسجد أمام الجماهير المسلمة، ويحدثهم عن فضائل مذهب الثنوية، في مثل هذا العصر، بل ولا في عصرنا نحن، فلا يستطيع داع من الدعاة أن يجلس في مسجد ما في أي بلد إسلامي لكي يتحدث مثلاً عن إيجابيات الماركسية، إن كان لها إيجابيات. وهذا كلام ينقصه الأدلة الكافية، والحجة المنطقية والتحقق العلمي.

والمحصلة النهائية التي تتبلور من عرض آراء العلماء[٢] أن جميع الروايات اختلفت في طبيعة التهمة الموجهة لمفكرنا. واتفقت على أن المهدي قتله وصلبه في بغداد. وهذا الاختلاف دليل على تهافت تهمة الزندقة. وأستطيع أن ألخص التهم كالآتي:

١ – الاتهام بالزندقة وتعني المانوية.

٢ – التعريض بالنبي.

٣ – الفسوق في الشعر.

٤ – اعتناق مذهب السوفسطائيين.

٥ – دراسة الفلسفة.

---

(١) تاريخ الأدب العربي جـ٢ ص١٧ (ت عبدالحليم النجار، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م).

(٢) يقول د. مدكور؛ وهو بصدد الحديث عن المؤثرات الأجنبية وفي مقدمتها التيار الفارسي: إن أفكار هذا التيار صادفت هوى لدى بعض المفكرين وعد منهم: الجعد بن درهم، وصالح بن عبد القدوس، وبشار بن برد، وأنهم رموا بالإلحاد والزندقة، ويعتمد في قوله على رواية ابن النديم، وقد أوردتها سابقاً. (في الفلسفة الإسلامية جـ٢ ص٢٤-٢٥) ومع احترامنا وحبنا وتقديرنا لأستاذنا د.مدكور فمن الواضح أنه ينقل آراء فقط، ونصوصاً للمؤرخين، وليس بصدد تمحيص الرواية أو تفنيدها ومناقشتها.

أما رأيي – وهو رأي قابل للمناقشة – أن مفكرنا راح ضحية السياسة وألاعيبها، ودفع حياته ثمناً للدفاع عن رأيه، وهو بسبيل مهاجمة السلطة الحاكمة حينما كان يجتمع مع جماعة الأصدقاء، ومعظمهم من صفوة المثقفين، يتندرون على مباذل الحكم، ويذكرون سيئاته، ويقارنون بين عهد مضى انتشر فيه الرخاء والعدل والحرية[1]، وعهد آخر اتسم بالشدة والقسوة وكبت الرأي، واشتدت السلطة السياسية في تعقب المعارضين، والتنكيل بهم، وانتشرت فيه الخلاعة والمجون وشرب الخمر، والاستمتاع بالجواري، وبغنائهن.

ومن ثم دفع صالح بن عبد القدوس حياته للدفاع عن العدالة والحرية والحق العام، كما قررته الشريعة الإسلامية.

- دلالات واقعة القتل التي تمت بيد الخليفة:

١- إظهار الخليفة المهدي بمظهر حامي حمى الدين، ورجل الإسلام، والمدافع عن مبادئه ضد الخارجين عليه.

٢- تأكيد هيبة الدولة، وسلطتها، وقوانينها الصارمة في وجه كل من تسول له نفسه التمرد، أو الخروج على النظام، أو إثارة الفتن فيها أو الهجوم على الخليفة وأنصاره.

٣- رسالة بليغة، وسريعة وواضحة، لكل من يفكر في الخروج على النظام القائم أو التقليل من شأنه، أو الهجوم بالفعل أو بالنقد على السلطة الحاكمة. والتعرض لشئون الحكم، ورجاله وكبرائه وأمرائه.

٤- إظهار عظم جرم صالح بن عبد القدوس، وخطورة التهمة، وإلباسه لباس الخارج على الدين، الرافض لقواعده وأفكاره وعقائده.

رابعا: دفاع عن صالح بن عبد القدوس:

من الإنصاف أن أقف وقفة دفاع عن صالح بن عبد القدوس، ليس بالباطل حاشا لله، ولكنها وقفة حق لرجل ظلم من رجال عصره، ومن المؤرخين ومن خليفته، ووقع

(١) عهد الرسول والخلفاء الراشدين.

فريسة سهلة للمكايد السياسية، إذن هي وقفة حق نتبين – بعد أن تبينا فيما سبق – مدى براءته من التهم التي وجهت إليه، ورأيناه مفكراً حراً، وشيخاً وقوراً، ومعلماً مهيباً، وحكيماً موفور الحكمة، وزاهداً عظيم الزهد، ورجلاً صامداً في وجه مظالم عصره ومبتذلات مجتمعه، ومغريات حياته المحيطة به؛ وسوف أقدم أدلة أخرى تؤكد براءة هذا المفكر من التهم التي وجهت إليه.

أ – تفشى الاتهام بالزندقة:

تفشت في عصر المهدي تهمة الزندقة، وأصبحت من أكثر التهم انتشاراً للتخلص من عالم منافس، أو خارج على السلطة متمردا عليها، أو محب لأهل البيت، متشيع لأصحاب كربلاء، أو شارب خمر متمرد على قواعد الدين أو طاعن في أسسه.

يقول العلامة أحمد أمين (ت١٩٥٤) وهو يدافع عن حكيمنا: «أخشى أن يكون جرى على لسانه في وعظه قول به مساس للنظام في وقته أو نقد لتصرف من تصرفات الخلفاء، فرموه بالزندقة، وإن فشو الاتهام بالزندقة في ذلك العصر دليل على عبودية الرأي لا على حريته»[(١)].

ولعل أبرز دليل على ذلك: قول العلماء بعضهم في بعض، بسبب الحسد والغيرة والتخلص من الخصم المنافس والوصول غلى قلب الحاكم؛ ففي الدولة الأموية، اتهم الجهد بن درهم (ت١١٧هـ) بالزندقة من قبل علماء عصره، ورواة التاريخ بعد ذلك، وقتل بيد خالد القسري بأمر من هشام بن عبد الملك، رغم مكانة الجعد الرسمية، والعلمية، إذ اتخذ معلماً لمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين، وكانت تهمة الزندقة تعني قوله بخلق القرآن وتأويل الصفات الإلهية. والواقع أن أصحاب النص كان لهم دولة في عهد الأمويين وصدراً من الخلافة العباسية، وكانت أقوالهم في تكفير مخالفيهم من الجهمية ورميهم بالزندقة، وهدر دمهم، تغري بهم، وتحفظ الأمراء عليهم، وتستفز ذوي البطش منهم على الإيقاع بهم، كما يدري ذلك من سبر أقوالهم في الجهمية، ولم يكن قتل الجعد بن

(١) ضحى الإسلام جـ٢ ص٤٥ (ط. النهضة المصرية، ١٩٦٤م).

درهم وغيلان الدمشقي.. إلا من جراء مقالاتهم فيهم، والتاريخ أبو العجب»[١].

- كذلك أبو العتاهية، اتهم بالزندقة من علماء عصره أيضاً، لسبب بسيط، مجمله أنه رفض رواية أحد القصاص، واسمه منصور بن عمار، فلما بلغه ذلك قال عن أبي العتاهية: إنه زنديق لا يذكر في شعره الجنة[٢]، ورد على هذه الفرية ابن عبد البر قائلاً: تدبرت شعر أبي العتاهية عند جمعي له فوجدت فيه ذكر البعث والمجازاة والحساب والثواب والعقاب[٣].

- وأحياناً كانت التهمة للتخلص من الخصوم السياسيين المنافسين، فعند المناصب العليا يتزاحم الوصوليين والانتهازيين والأنداد والأكفاء، ومن طبيعة النفس الانتصار على الخصم، وفي طبائع بعضهم استخدام الوسائل الدنية كافة، لذلك يلجأ الكثيرون إلى المزيد من الحيل، ونصب الفخاخ للخصم، حتى يتخلصوا منه، فيختلقون التهم، وينسجون الأكاذيب، كأدق ما تكون، ومثال على ذلك والأمثلة كثيرة – صراع الفضل بن الربيع مع وزير المهدي معاوية بن يسار الذي أوغر صدر الخليفة عليه فعزله من الوزارة، وقتل ابنه بتهمة الزندقة، ومجمل التهمة أنه لا يحفظ القرآن!!؟[٤]

- ودائماً كانت التهمة توجه لهؤلاء المتمردين على نظام الحكم، والذين ينظرون لأصحاب السلطة بعين السخط، وعدم الرضا، وأعتقد أن صالح بن عبد القدوس منهم وحماد عجرد الذي اتهم بالزندقة أيضاً ويقال عنه: «لم يكن يهاب كبيراً ولا صغيراً ولا عالماً كان أو خليفة»[٥].

- ثم تبقى نقطة مهمة، فالملاحظ أن أغلبية تهم الزندقة لم يكن أساسها الدافع

---

(١) القاسمي: تاريخ الجهمية والمعتزلة ص٦٩ (ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م).

(٢) مهذب الأغاني جـ١ ص٣٥ (صنفه محمد الخضري، مطبعة مصر).

(٣) جامع العلوم جـ٢ ص٥٨ وأورد المؤلف العديد من طعن العلماء في بعضهم البعض (المصدر السابق ص١٥٧-١٥٨) ومن العجيب أن أستاذنا د. سامي النشار – رحمه الله – يتهم أبا العتاهية بالزندقة (نشأة الفكر جـ١ ص٢١٨، ط. دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م).

(٤) تاريخ الطبري جـ٨ ص١٣٩ (ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر).

(٥) جورجي زيدان: آداب اللغة جـ٢ ص٧٤ (مراجعة شوقي ضيف، دار الهلال. القاهرة)

الديني، بقدر ما كان الدافع سياسياً. ومثال على ذلك: بشار بن برد. الذي اشتهر بالمجون والخلاعة، وقصصه فيها مثل الأساطير، وشعره فاحش، ومجونه متدن، وثبت أنه لم يكن يصلي، ويشرب الخمر، واتهم الحرائر في أعراضهن ومع كل هذا كان من المقربين في بلاط المهدي، ومن الأثيرين لديه ويأنس به، ويستظرفه ويسمع لنكاته الفاحشة[١].

وقد قتله المهدي ليس بسبب الزندقة – وإلا لما صبر عليه أو أمهله حتى نيف على السبعين[٢] وإنما السبب الحقيقي يكمن في أن بشاراً هجاه أشنع الهجاء وأنزل من قدره، وعرض بجواريه (ومنها زوجته) وواتهمه في عرضه، وأفحش في القول، ورجا له سوء العاقبة، وشوه شخصه وحط من كرامة الخلافة.

اسمعه يقول في أفحش شعر قيل في العربية:

خليفة يزني بعماته ... يلعب بالدبوق والصولجان

أبدلنا الله به غيره ... ودس موسى في حر الخيزران[٣]

وفي شعر آخر يحمل لهجة التحريض والثورة على العباسيين، يدعو فلول الأمويين إلى استعادة ملكهم وينبههم بوهن القيادة وضعف الخليفة وسيطرة الوزير على مقاليد الحكم دون الخليفة اللاهي العابث الغارق إلى أذنيه في الملذات والشهوات والغناء والرقص قال:

بني أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعود[٤]

ويرى بعض المؤرخين أن بشاراً كان شيعياً رافضياً[٥].

---

(١) تاريخ الخلفاء ص٢٧٦ (ت. محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت).

(٢) عبد القادر المازني: بشار ص٤٩ (ط الحلبي، القاهرة، ١٩٤٤م).

(٣) تاريخ الطبري جـ٨ ص١٥٦-١٨١، والدبوق لعبة من لعبة الصبيان، والخيزران جارية المهدي وأم الهادي والرشيد.

(٤) المرجع السابق.

(٥) نكت الهميان ص١٢٧ (ط، الجمالية، القاهرة، ١٩١١م).

- ثم أختم هذه المسألة بشخصية أبي دلامة:

وأبو دلامة أبشع مثل على ما ذكرنا، فقد اشتهر بفساد أخلاقه وسوء مسلكه، وإعلانه صراحة رفضه للصلاة والصوم والحج، وشرب الخمر، وكان من جملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين، ولا يخجل من أن يظهر ذلك.

ومع كل هذا قربه المهدي، وجعله من خواص جلسائه وندمائه، وإسرافه معه بين مشهور[١].

ب - معنى الزندقة:

كلمة الزندقة، من أشد الكلمات انتشاراً في العصر العباسي الأول إذ أصبحت تهمة تلصق بكبار العلماء، وتوجه إلى أكثر الناس استنارة وأوسعهم أفقاً، فوجهت إلى المفكرين والشعراء والقادة، لأسباب كثيرة.

وفي البداية يجب التوقف لإلقاء الضوء على مدلول كلمة الزندقة، والبحث عن تطور معناها، قبل هذا العصر، لكي يتضح أي المفاهيم وجهت إلى المفكر صالح بن عبد القدوس، ونحن بصدد تقديم هذه الدراسة عنه. ومن الجدير بالإشارة أن الإلحاد أو إنكار الألوهية أو رفض ركن من الإيمان، كل هذه قضايا وجدت قديماً مع البشر، فكل رسول كان له منكرون ومعارضون لبعض المبادئ التي أتى بها.

ويقال: إن آدم بعث لأولاده فأنذرهم بالآخرة وخوفهم من الحساب والعذاب فأنكروا قوله وردوه، وعلى هذا النهج سارت البشرية إلى اليوم ما بين منكر ومؤمن[٢].

ومن ثم فقضية الإلحاد قضية قديمة وجدت مع وجود الإنسان فوق الأرض بعد أن أتت إليه الرسل تهديه إلى سواء السبيل.

ولم يشذ العرب عن هذه القاعدة، ففي الجاهلية، قبل ظهور الإسلام وجدت طوائف عديدة لها مذاهب مختلفة، فطائفة تقول بالدهر وتنكر الألوهية، وأخرى تؤمن لكنها

(١) مهذب الأغاني جـ٩ ص١٧-٣٦.
(٢) رسالة الغفران ص٣٥٣.

مشركة، وثالثة تنكر البعث، ورابعة تخلط تصورها للإله مع تصوراتها البشرية وهكذا.

ويقول ابن قتيبة المتوفي عام ٢٧٦هـ وهو يعدد أديان العرب في الجاهلية: إن العرب على اختلاف قبائلهم، اعتنقوا النصرانية، واليهودية والمجوسية ثم يقول: (كانت الزندقة في قريش قد أخذوها من الحيرة)[١].

ومن المهم هنا التوقف لكي نتعرف على معنى الزندقة.

- فعبارة ابن قتيبة تدل دلالة واضحة على أن الزندقة تعني المانوية، أو الثنوية عامة وقد انتقلت إلى عرب الحيرة من الفرس الذين سيطروا أزماناً طويلة عليها.

- والمسعودي (ت ٣٤٦هـ) يحاول أن يحدد أصل اللفظة فيبحث عن جذورها التاريخية فيقول: ظهر اسم الزندقة أيام ماني بن فاتك؛ وذلك أن زرادشت أتى إلى الفرس بكتابه المقدس المعروف «بالبستاه» ثم عمل له تفسيراً وهو «الزند» وعمل لهذا التفسير شرحاً سماه «البازند» وكان الزند بياناً لتأويل المتقدم المنزل ومن أورد في شريعتهم شيئاً بخلاف المنزل الذي هو البستاه، وعدل إلى التأويل الذي هو الزند قالوا: هذا زندي، فأضافوه إلى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل بخلاف التنزيل، فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا زنديق وعربوه، والثنوية هم الزنادقة ولحق بهم سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم»[٢].

والمستخلص من عبارة المسعودي أن الزندقة تطلق على معنيين:

- من ينحرف عن ظاهر النص إلى تأويله.

- من يعتنق مذاهب الثنوية سواء مذهب زرادشت أوماني أو مزدك.

ويبدو أن أغلب مؤرخي الفكر العربي القديم قد أخذوا بأقوال المسعودي فساروا في هذا الاتجاه نفسه لاسيما المعنى الثاني.

- يقول ابن النديم (ت٣٨٥هـ): إن كلمة الزندقة تطلق على أصحاب ماني ومعتنقي

---

(١) المعارف ص٦٢١ (ت، ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م).

(٢) مروج الذهب جـ١ ص٢٥١.

مذهبه[١].

- ويقول ابن نباته (ت٧٦٨هـ) إن الزنادقة في الأصل الثنوية أتباع زرادشت ومزدك، ثم يضيف أن كل منهمك في لذاته ولعبه وبطالته يسمى زنديقاً أيضاً، وإن يكن يستخلص ذلك من مذهب مزدك الذي أباح المحرمات وترك العبادات[٢].

- ويقول صاحب كشاف الاصطلاحات:

الزنديق بالكسر الثنوي القائل بإلهين منهما يكون النور والظلمة[٣].

- وعلى هذا النهج ذهب بعض المستشرقين:

فيرى جولدتسيهر: أن تهمة الزندقة وجهت لكل من اعتنق أفكاراً دينية فارسية وأقام طقوس المانوية بصورة علنية[٤].

ويؤيد كريمر[٥] هذا القول نفسه، وكذلك نيكلسون[٦] وأحمد أمين[٧].

أما الذين يضيفون معاني جديدة لمفهوم الزندقة: فأبرزهم ابن المرتضى ت٤٣٦هـ الذي يرى: أن كل من يقول بالدهر وينفى الصانع ويشرك بالله ويطلب الرزق من غير الله، ويتستر بإظهار الإسلام، فهو زنديق ملحد وكافر مشرك[٨].

وإلى هذا المعنى ذهب أبو العلاء المعري ت٤٤٩هـ فيقول: الزنادقة هم الذين يسمون الدهرية ولا يقولون بنبوة ولا كتاب[٩].

والإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ) يقف بشيء من التوسع أمام كلمة الزندقة فيقول: إنها

---

(١) الفهرست ص٤٧٢ (دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م).
(٢) سرح العيون ص٢٦٣.
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون ص١١٧ (ط. القاهرة، ١٩٧٢م).
(٤) نقلاً عن نيكلسون: تاريخ الأدب العباسي ص١٧٣.
(٥) الحضارة الإسلامية ص١٠١.
(٦) التصوف الإسلامي ص٦٣.
(٧) فجر الإسلام ص١٢١.
(٨) أمالي المرتضى جـ١ ص٨٨.
(٩) رسالة الغفران ص٣٦٢.

تطلق على صنفين:

- الدهريون: وهم من ينكرون الصانع المدبر للعالم ويعتقدون أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه بلا صانع.

- الطبيعيون: وهم يؤمنون بالله وصفاته لكنهم ينكرون البعث والحساب والجنة والنار وخلود الروح[١].

وفي العصر العباسي الأول، اتسع معنى الزندقة ليشمل كل من يتشبه بعادات الفرس وتقاليدهم، أو من يتحلل من قيود الدين، ويهمل أركانه، فلا يصلي ولا يصوم أو يأتي فعلاً محرماً كشرب الخمر، وإتيان الغلمان. ويروى عن آدم حفيد عمر بن عبد العزيز أنه غنى أشعاراً مدح فيها الخمر فقال:

هـــاك فاشـربها خليلي ... في مدى الليل الطويل

قل لمـــن يلحاك فيها ... من فقيه أو نبيـــل

أنت دعها وارج أخرى ... من رحيق السلسـبيل

فلما سمعه المهدي قال له ويلك تزندقت[٢].

وأيضاً من يتهجم على أقوال الشرع؛ سئل بعضهم عن الأضحى؛ فقال: وباء يقع في البقورة والأغنام. أو يفسر النص تفسيراً لا يتفق مع رأي الفقهاء أو تصدر منه كلمة هينة تمس الدين من قبيل المداعبة، ومثال ذلك أن معاوية الضرير ذكر في مجلس الرشيد – حديثاً «احتج آدم وموسى» ، فقال رجل من قريش، كان في المجلس: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف زنديق يطعن في حديث رسول الله[٣].

ثم أطلق على كل من اتسم بالتحرر الفكري فيقرأ كتب المذاهب المختلفة والديانات الأخرى أو من اتصف بالميوعة والتخنث وادعاء الظرف.

---

(١) المنقذ من الضلال ٢٨: ٣٢.

(٢) مهذب الأغاني جـ٧ ص٤٩.

(٣) تاريخ الخلفاء ص٢٨٥.

ومن هذا العرض تتبلور معاني الزندقة في المفاهيم الآتية:

١- المؤمنون بأفكار المذهب الثنوي أتباع ماني أو مزدك.

٢- كل من اعتنق الإسلام ظاهراً واعتنق أفكاراً أخرى مناوئة له.

٣- المنكرون لوجود الله أو المشركون، أو كل من ينكر أصلاً في العقائد الإسلامية، كالإيمان بالقرآن أو النبوة أو اليوم الآخر.

٤- كل من يدعى التحرر الفكري ويتهجم على مبادئ الدين ويعلن بالقول والفعل رفضه لركن من أركان الإسلام سواء كان من قبيل الإهمال أو الاستهتار.

٥- أصحاب الغناء المبتذل، والميوعة المكشوفة، والتخنث الفاضح من الرجال.

خلاصة القول: أن هذه المعاني المتعددة لا تنطبق بحال من الأحوال على أطوار حياة مفكرنا.

ثم يبقى سؤال من الجدير أن نبحث عن إجابة له: لماذا تميز عهدا المنصور والمهدي بظهور حركات الزندقة وانتشارها داخل المجتمع العباسي في عصره الأول؟

ولماذا ازدادت انتشاراً في عهد المهدي، على وجه أخص؟

يمكن إجمال الإجابة في العناصر الآتية:

١- شعور الفرس بدورهم القوى والفعال في إقامة الدولة العباسية ومساندتهم لها واعتماد العباسيين عليهم في مجالات شتى فأرادوا أن يتمردوا على سلطان الدولة ويبعثوا مجدهم القديم ثانية بنشر عقائدهم الدينية، ومذاهبهم الفلسفية لكي يتسنى لهم السيطرة على الدولة من الناحية الفكرية ثم من الناحية السياسية ويعيدوا مجد دولتهم البائدة على مسرح التاريخ.

٢- الحنين إلى الماضي وهو جزء من التركيب السيكلوجي للطبيعة البشرية ونزعة قوية تشد النفس إلى العيش فيه بعد أن ولى، لذلك حن الفرس إلى ماضيهم، حيث يزخر بتراث ديني عظيم، ومالوا إلى عاداتهم وتقاليدهم في مقابل عادات

الإسلام وتقاليده الجديدة.

٣- النزعة العنصرية والشعور القومي بتفوق الجنس الفارسي على الجنسي العربي، ونظرتهم الاستعلائية إليهم، إذ يعدونهم جحافل من الرعاة الحفاة الذين خرجوا من شبه الجزيرة بلا ماض معترف به، ولا تراث مفهوم ولا عادات محترمة ولا حضارة تذكر في التاريخ إذا ذكرت الحضارات.

وفي مقابل ذلك يعتدون بحضارتهم الزاهرة، وملوكهم العظام، ودينهم المشهور ومجدهم الحافل، وثقافتهم التي انتشرت في أرجاء الشرق الأدنى والأقصى وهذا هو منطق الشعوبية.

٤- الظلم الاجتماعي الواقع على الشعوب الفارسية ولاسيما الطبقات الدنيا، صحيح إن الطبقة الارستقراطية الفارسية شاركت في الحكومة الإسلامية، وكان منهم الوزراء والأمراء والكتاب، وتبوءوا مكانة رفيعة، ومناصب سامية في الدولة وتمتعوا بالدور والقصور واستولوا على الأراضي، واحتكروا التجارة، لكن هذه طبقة من المجتمع الفارسي في حين أن باقي الطبقات كانت ترى إسراف الخلفاء، وجشع الوزراء وقسوة الولاة، ومكائد الجواري، وتمتعهن بالثروة، ونفوذهن داخل القصور، ونفوذ أمراء البيت العباسي وسيطرتهم على مقدرات الدولة.

٥- النزعة الشيعية التي ترسبت في الوجدان الفارسي، وأصبحت عاطفة تملك عليه جوارحه، وقلبه وضميره الوطني، منذ أن تزوج الحسين بن علي إحدى بنات ملوكهم يزدجرد الثالث، فاعتبروا هذا الزواج بداية لعهد جديد يربط البيت العلوي بالدولة الفارسية، علاوة على المأساة الدامية التي نزلت بالبيت العلوي وتمثلت في تشريدهم وقتلهم وصلبهم على يد الأمويين، وأبناء عمومتهم العباسيين وهذا في حد ذاته جدير باستمالة كل العواطف الطيبة والنزعات الخيرة عند الإنسان.

هذان العاملان دفعا الفرس إلى تحين الفرصة للوثوب على الدولة العباسية بوصفهم

سالبين حق الشيعة، ومغتصبين حق الخلافة، تهديدها داخلياً وخارجياً، والعمل على سقوطها بكل ما أوتوا من سبيل، وما منحوا من مكر ودهاء، وما تيسر لهم من ثقافة وما توفر لهم من جند وسلاح.

٦- مرحلة الدعة والاستقرار والرخاء التي عمت الدولة في عهد المهدي بعد أن انتهت مرحلة تأسيس الملك ونشر سلطان الدولة في عهدي المنصور والسفاح وقد تميزوا بالقوة والصرامة. لذلك جاء عهد المهدي يضمد الجراح ويواسي المكلوم ويحقن الدماء. ومن ثم تحركت رؤوس الفتنة لبعث تعاليمها الفارسية ونشر معتقداتها المذهبية، وعدم الاستسلام للأمر الواقع.

ج - طبيعة شخصية الخليفة المهدي:

الخليفة إنسان له نوازعه البشرية، الخيرة والشريرة، من هذا المنظور علينا أن نشرح شخصية الخليفة، غير ناظرين إليه هذه النظرة المقدسة التي نراها في كتب السلف وأحياناً في كتب بعض المعاصرين[١].

فالمهدي إنسان فيه متناقضات النفس البشرية كافة، كمالاتها ونواقصها، إيجابياتها وسلبياتها خيرها وشرها، ومن ثم فعلى الباحث حينما يريد أن يقيم شخصية ما فعليه أن يقيمها حسب الطبيعة البشرية كما نراها في واقع الناس وكما ندركها ونحن نتعامل معها، دون أن نجملها أكثر مما هي عليه.

هذا الخليفة، الذي له نوازع وميول وأهواء ورغبات وشهوات، قام بقتل أحد المفكرين وهو الشاعر صالح بن عبد القدوس بتهمة الزندقة التي تفشت في عصره. والسؤال المطروح:

أ- كانت حياة الخليفة المهدي حياة دينية أي تتفق ومبادئ الإسلام، حتى إنه يغار على مبادئ الدين، فيتتبع الزنادقة حقيقة مطهراً منهم البلاد، مريحاً منهم العباد، أم أن

---

(١) يرسم الدكتور علي الخربوطلي صورة زاهية للمهدي، مبرأة من العيوب، خالية من النواقص حتى أن القارئ لكتابه يقول عن المهدي: «ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم.. ويحاول أن يدافع عن نواقصه، وعيوبه باستماتة شديدة وأدلة مبتورة (المهدي الخليفة العباسي، سلسلة أعلام العرب رقم ٥١ سنة ١٩٦٦).

المسألة لها اعتبارات سياسية؟

هل سلوكياته، كانت سلوكيات نزيهة؟ هل شخصيته شخصية جادة قوية وصفاته محمودة، وشمائله كريمة؟

هل كان يسير حقيقة على جادة الطريق، حاكماً بالعدل، فاهماً أحكام الدين مطبقاً لها على جميع رعاياه بدون تفرقة؟

والخلاصة أقتله لصالح كان بدافع الحمية الدينية بصفته الخليفة المدافع عن حمى الدين؟

أم أن واقعة القتل كانت لها أبعاد مختلفة، سياسية، ومذهبية، والدين براء من كل ذلك؟

الحقيقة الجلية أن شخصية المهدي كان فيها من النواقص الكثير مما يجعلنا نرتاب في مسألة قتله لصالح بسبب الزندقة، ونظرة سريعة لأبعاد شخصيته تدرك هذا أشد الإدراك:

- فقد عرف عن المهدي حماسة دينية مشبوبة، مثل النار التي لها أنوار ثم تخمد فجأة، هذا ما نراه حينما يلصق خده بالتراب لمجرد سماعه قول الرسول في أمر ما[1]. لكن هذه الحماسة تنبئ عن فهم شكلي للدين، دون الاهتمام بجوهره، نعم قد اهتم ببناء المساجد، لكن اهتمامه ببناء القصور كان أشد؛ واهتم بتسيير البريد لربط مدن الإسلام، لكنه لم يهتم بتسيير العدل في البلاد – كما أمر الدين – لتزكية نفوس البشر.

واهتم بإطلاق اللحية وصبغ الشعر ووضع العطور، لكنه لم يهتم بإشباع الجائع والعطف على الفقير، والأخذ بيد المسكين.

- ومسألة إسراف المهدي واضحة في كتب التاريخ رغم ما عرف عن أبيه المنصور من البخل الشديد، وإذا كانت الأموال التي يمنحها الخليفة من ماله الخاص فلا بأس في ذلك، ولكن القضية أن هذه الأموال منهوبة من بيت المسلمين، فبإشارة من الخليفة تهدر

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٧٧.

آلاف الدرهم والدنانير، لهذا الرجل القريب، أو لشاعر مقرب، أو مضحك من البطانة، أو متهتك في قوله.

وكتاب الأغاني حافل بذلك، فقد أسرف في إعطاء امرأة من رعاياه لمجرد قولها له: يا عصبة رسول الله[١].

واسترضى أحد رعاياه – كان يبغي جارية فلم يحصل عليها – بخمسين ألف درهم[٢]. وكذلك منح أبا العتاهية خمسين ألف درهم بعد أن عجز عن الظفر بجارية كان يحبها. وقصة زواج ابنه هارون الرشيد من زبيدة وبذخه في يوم الزفاف وإعداده وليمة لم يسبقه إليها أحد في العصور السالفة له[٣] تنبئ عن سفه وإضرار بأموال الدولة المملوكة للشعب المسلم.

وكذا إسرافه مع الشاعر المتهتك أبي دلامة، وشاعره الخاص مروان بن أبي حفصة فقد منحه مائة ألف درهم لقصيدة أعجب بها وكانت هذه العطية الضخمة أول عطية يأخذها شاعر من بني العباس[٤].

– أما عن حياة اللهو والغناء وشرب الخمر، فقد كانت دائرته محدودة في عهد أبيه المنصور وعمه السفاح، لأن الدولة كانت تبني نفسها فاحتاج الخلفاء إلى عنصر الشدة والقسوة وحياة الجد والكفاح، وكاد أن ينعدم اللهو بعامة والغناء بخاصة، وما أن ولي المهدي الخلافة حتى انطلقت الشياطين من أصفادها وانتشر اللهو وأصبح الغناء علامة لأستقراطية الحكام ومن يتشبه بهم، والشراب جزء من عادات البلاط العباسي في عصر المهدي والمجاهرة بذلك أمر شاع وطم[٥].

ويحكي السيوطي أن المهدي أول من ظهر للندماء جهاراً وكان الخلفاء من قبله

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٤ أعطاها عشرة آلاف درهم.
(٢) مختار الأغاني جـ١ ص٣٨ (اختيار ابن منظور، المطبعة السلفية، القاهرة).
(٣) الخربوطلي: المهدي ص٢٥٨.
(٤) مهذب الاغاني جـ٩ ص٣٦-٨١ وأيضا حياة الحيوان الكبرى ص٦٠-٦٣.
(٥) العمروسي: الجواري ص٢١.

يحتجبون وأشير عليه بالاحتجاب فقال: إنما اللذة مع مشاهدتهم[١].

وأغرم بالصيد إغراماً شديداً حتى يروى أنه أورده موارد التهلكة وأودى بحياته في نهاية الأمر[٢].

وقالوا عن المغنية «بصبص» : إن المهدي قد أعجب بها فاشتراها سراً في خلافة أبيه وحجبها عنه فولدت له «علية» المغنية الشاعرة المعروفة[٣].

وحياة علية لا تظهر كرامة بيت الخلافة الذي ربيت فيه، ولا تقاليده الدينية، أو النخوة العربية، أو المحافظة على شرف الأسرة العباسية، فقد روى أنها هويت خادماً للرشيد، وخادماً آخر لها، وهذا ينبئ أن المهدي لم يرب أولاده تربية طيبة، ولم ينشئهم النشأة الدينية المطلوبة، أو يعودهم على تقاليد الإسلام وأصوله.

- وفي باب اللهو والغناء والسماع يأتي شرب الخمر، ويروى أن وزيره يعقوب بن داود حاول أن يثنيه عن ذلك، فقد وعظه كثيراً، ونهاه عن شرب الخمر وسماع الغناء، فقال: أبعد الصلوات الخمس في المسجد الحرام يشرب الخمر ويغنى بين يديك!!؟[٤].

فهذه الظواهر تدل دلالة واضحة على أن الخليفة لم يتفرغ لسياسة رعيته السياسية الحكيمة العادلة، بل أخذ من وقته الكثير لإنفاقه في اللهو والسعة مهملاً مصالح المواطنين وشعبه الذي بايعه، منتقضاً أحكام دينه، كاسراً العديد من قواعده الواضحة. ومع أن الوفاء بالوعد من علامات الإيمان، نجد أن المهدي لا يفي بوعده في مسألة مهمة حيث تنكر لأقرب الأقرباء له، ونعني به عمه عيسى بن موسى، فخلعه من ولاية العهد – كما فعل معه أبوه المنصور – ثم ولى مكانه ابنيه موسى الهادي وهارون الرشيد[٥].

- وقد تسلط المهدي على رعاياه تسلطاً بشعاً مستغلاً سلطاته الواسعة، وتعالى

---

(١) تاريخ الخلفاء ص٢٦٩-٢٧٧.

(٢) مختار الأغاني جـ١ ص٣٤، تاريخ الطبري جـ٨ ص١٦٩.

(٣) العمروسي: الجواري ص١٢٤ (ط، دار المعارف بمصر، ١٩٤٥م).

(٤) البداية والنهاية جـ١٠ ص١٤٨، حاول الدكتور الخربوطلي أن يدافع عن المهدي ويبرئه من ذلك بحجة أن الفقهاء لم يحرموا شرب النبيذ (المهدي ص٢٠٣).

(٥) تاريخ: الطبري جـ٨ ص١٢٦.

عليهم، فهو السلطان الحاكم لا راد لأمره، ولا معترض لحكمه، فبإشارة خفية من يده تطاح رؤوس دون وجه حق.

ويقال: إن أحد رعاياه دخل عليه وكان يكرهه لأمر بلغه عنه، فجعل يشتمه ويسبه ثم أمر به فجر برجله وحبس[١] دون أن يتحرى الخليفة مدى حصة الخبر. ودخل عليه رجل من بني مروان فتفوه بكلمة، فاغتاظ المهدي فأمر بقتله[٢]. وفي حوار دار بين المهدي وبين معن بن زائدة بسبب رجل أهدر المهدي دمه وكان معن قد أجاره.

قال المهدي: يا معن أبلغ من أمرك أن تجير علي؟

قال: نعم؛ قد قتلت في دولتكم أربعة آلاف مصل فلا يجار لي رجل واحد[٣].

- وفي مزيد من التحري عن حياة المهدي، يشاهد في دائرة الأصدقاء المقربين من ثبت فساد أخلاقه، وتمرده على الدين، وهجومه على قواعده، فقد اشتهر عن أبي دلامة؛ شاعر المهدي المقرب، ومضحكه، تهتكه في الدين، والاستهتار بقواعده، إذ أنه أعلن ذلك في شعر صريح وقبيح، كراهيته للصلاة، وثقلها على نفسه، ورفضه القيام بأركانها، وكذا صوم رمضان، والحج[٤].

وهي دعائم الإسلام الأساسية، ومع هذا كان أبو دلامة من أحب الشعراء إلى المهدي.

- وكذلك كان مروان بن أبي حفصة، من المقربين، والأثراء لدى الخليفة مع ما عرف دأبه المستمر على هجاء العلويين، وذمهم والتحريض عليهم[٥].

- وقد يقال أن المهدي حاول أن يكسب ود الشيعة فعفا عنهم، وأخرجهم من السجون، وأغدق عليهم الأموال والأرزاق.

---

(١) مختار الأغاني جـ١ ص٣٧.
(٢) مهذب الأغاني جـ٧ ص٣٧.
(٣) البداية والنهاية جـ١٠ ص١٥٤.
(٤) مهذب الأغاني جـ٧ ص٣٧.
(٥) قتل مروان بن أبي حفصه بيد أحد الشيعة انتقاماً منه لتهجمه على آل البيت (المصدر السابق ص٨٩).

لكن الحقيقة أنه عفا عن الشيعة المسالمين، الذين لم يحاربوه أو يطالبوا بالسلطة. أما الشيعة المتمردون الذين يعتقدون بأحقية الخلافة لهم، فلم يتوان في تتبع آثارهم، والتشريد بهم، وسفك دمائهم، وقتل أنصارهم. ومن رضي عنهم من المسالمين وضعهم تحت مراقبة شديدة، سواء الذين أقاموا في بغداد أو في مدينة الرسول ﷺ.

- وقد أقدم المهدي على سجن وزيره المخلص يعقوب بن داود في «المطبق[1]» لما ثبت عنده تشيعه لآل البيت، وجرده من أمواله، وسجن بعض أهل بيته وعزل جميع أنصاره.

هذه الظواهر المتعددة تتحدث بأفصح التعابير عن مدى كراهية المهدي للشيعة طلاب السلطة، وقسوته معهم.

الحقيقة أن القضية هنا محسومة مادام الأمر يقترب من دائرة السياسة، واهتزاز كرسي الخليفة بواسطة الشيعة أم غير الشيعة.

- ونهاية حياة المهدي سواء أكانت نتيجة ولعه الشديد بالصيد أم بسبب وضع السم له بواسطة إحدى جواريه التي أرادت أن تكيد لجارية أخرى ظفرت بقلب المهدي، سواء هذا أم ذاك. فإن الميتة في كلتا الحالتين، توضح بجلاء أن الخليفة لم يكن يسهر ليله ويشقى نهاره من أجل رعيته، بقدر ما كان يريد أن يتمتع بوقته وبالأموال التي تجلب إليه من أقطار المملكة.

والرواية الثانية التي تتحدث عن موت المهدي بالسم تعكس الحياة الخليعة التي عاشتها الجواري، والمؤامرات التي عكفن على تدبيرها في قصور الخلفاء وحياة الخليفة الرغدة التي عاشها داخل أسوار قصوره، متمتعاً بكافة شهوات الدنيا وملاذ الحياة من شرب وأكل وجنس وغناء، تاركاً المملكة الإسلامية تضج من الفقر والجوع والبؤس، والناس يعيشون على الكفاف.

---

(١) المطبق: عبارة عن سجن مظلم به آبار عميقة يلقى فيها المسجون فلا يستطيع أن يبصر أو يسمع ويترك فيه مدداً متطاولة (البداية والنهاية جـ١٠ ص١٤٨) (ط. السعادة بمصر).

- والمحصلة الأخيرة أن الباحث لا يقلل من قيمة المهدي كشخصية تاريخية، ولا ينتقص من مكانته، ولا يغفل إصلاحاته العظيمة في أنحاء بلاد الإسلام، ولا دوره في رد المظالم، والعفو عن الشيعة المسالمين، وسياسة البلاد سياسة أقرب إلى الرأفة والعطف والمودة والحزم، إذا قيست بفترات القسوة والعنف والدم في عهد المنصور وأخيه السفاح، كل هذا غير منكور، ولا منقوص، لكن المفترض في الحاكم المسلم والمقرر في العقل، ومبادئ الإسلام، أن يقود رعيته على نهج الدين، ومقررات الإسلام، وأن يعمل على رخاء شعبه وتقدمه والوصول به إلى مكانة راقية وحياة مزدهرة.

فالمبايعة التي تتم بين الحاكم والرعية تكون على هذا الأساس، وأوامر الدين في الإصلاح ونهوض بحق الرعية فرض عين، وخطبة المهدي في بداية حكمه تقرر ذلك وتؤكده:

«أيها الناس أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة، من حيث رآه الله مقدماً ذلك»[١].

فهذه الكلمات تبشر الشعب بعهد من الطمأنينة والعافية والرخاء.

والدين جاء أصلا لكي ينشر المحبة والعدالة بين البشر.

ومن ثم فما تم في عهد المهدي من إيجابيات يعد شيئاً طبيعياً إذا قيس بمعيار مبادئ الإسلام: من أمره انتهاج الطريق المستقيم ونشر العدالة والأمن والأمان بين العباد وفي البلاد.

وإذا قيم عهده وشخصيته فمن البدهي التسليم بكل الإيجابيات التي تمت في عصره، وما يؤاخذ عليه تلك السلبيات التي سبق الحديث عنها، وكان في مقدوره أن يتغلب عليها أو يمنع وقوعها إذا صدقت النية وصحت العزيمة.

ومع هذه المؤاخذة، فبالباحث ليس غافلاً عن نوازع الطبيعة البشرية بكل ما فيها من

(١) تاريخ الخلفاء ص٢٧٢.

مد وجزر، وخير وشر، وفضيلة ورذيلة، ومد وجزر.

د- مثالب العباسيين:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ):

كل ما عدا المعصوم فمأخوذ منه ومردود، هذا ما ينطبق على الناس جميعاً كما ينطبق على العباسيين، فهم أخيراً بشر يخطئون ويصيبون، وكما أن لهم إيجابيات كثيرة لا ينكرها إلا مجحف، ودورهم في المحافظة على وحدة المملكة الإسلامية، في مواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بها ظاهر للعيان، إلا أن سلبياتهم لا تخفى على الناظر في تاريخهم، والمدقق في حياتهم، لأن الأصل هو الحق والاستثناء الباطل.

ومن ثم كانت لهم ثغرات وسقطات وسلبيات، عكف المؤرخون على إظهارها، وتتبعها وتسجيلها، ومنهم الخوارزمي الذي يهاجمهم أشد الهجوم وأقساه ويرميهم بكل نقيصة ويلقي في وجوههم كل تهمة.

فيقول: «ماذا أقول في قوم حملوا الوحوش على النساء المسلمات، وحرثوا تربة الحسين بالفدان، ونفوا زواره إلى البلدان، وما أصف من قوم هم نطف السكارى في أرحام القيان، وماذا يقال في أهل بيت منهم نبغ البغا، وفيهم راح التخنيث وغدا، وبهم عرف اللواط»[1].

وعلى الرغم من هذا الهجوم الجارح والنقد العنيف إلا أنه يعتمد على استقراء لظواهر متعددة، وأحداث وقعت، ومواقف معلومة للمؤرخين وجدت وانتشرت في المجتمع العباسي، وسجلها المؤرخون في كتبهم.

ونستأنس برأي للعلامة أحمد أمين الذي يقول: «نرى خلفاء بني العباس قد أهانوا كثيراً من العلماء وعذبوهم، فأبو حنيفة ومالك يضربان ويحبسان، لأنهما لا يريدان أن يتوليا القضاء أو لرأيهما في البيعة، وسفيان الثوري يتنقل في البلاد مختفياً لأنهم أرادوه على قضاء الكوفة فأبى، ثم هذه الإدارة التي تنشأ للبحث عن الزنادقة وعقوبتهم، والإفراط

(١) رسائل الخوارزمي ص٨٢.

في قتل المتهمين، ومنهم – بلا شك – من قتل ظلماً وعدواناً وكان الداعي إلى قتله أسباباً سياسية، فنفذا أغراضهم تحت ستار الزندقة استمالة للجمهور كما فعلوا في ابن المقفع، وكما فعلوا في صالح بن عبد القدوس» (١).

ومن المشهور عن السفاح أنه أظهر من القسوة، وسفك الدماء وتتبع أفراد الأسرة الأموية ما زال يزخر به التاريخ، وأبو جعفر المنصور الذي أسس الدولة، لم ين عن استخدام العنف والقسوة والأخذ بالظنة، فطاحت رؤوس وترملت نساء وخربت بيوت، وقد أدهش مسلكه المنافي للأخلاق وأوامر الدين، أحد رعاياه فقال له: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو، فرد عليه المنصور مبرراً ذلك: إن بني مروان لم تبل رممهم، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة» (٢).

وجدير بالملاحظة أن تبرير المنصور لاستخدامه القوة والقسوة، انصب أساساً على مكافحة المعارضة من شانئين وأمويين وشيعة بعامة وطالبيين بخاصة، ، أي أن الغرض في مجمله سياسي.

وللباحث أن يتساءل؛ لماذا قتل أبو العباس السفاح، وزيره الأول أبا سلمة الخلال؟

ولماذا قتل المنصور صاحب الثورة، ورافع الراية، أبا مسلم الخراساني؟

ولماذا سجن المهدي وزيره المقرب، ونديمه الأثير، يعقوب بن داود؟

إن الدافع الأول، لم يكن للعاطفة الدينية، أو الدفاع عن مبادئ الإسلام وإنما شهوة السلطة، وحب الرياسة، والمحافظة على كرسي العرش.

فالخليفة كان مستعداً أن يتسامح في كل شيء، ويعفو عن أي شخص من المتهمين بالزندقة (مطيع بن إياس).

وعن المجدفين في الدين (بشار بن برد)؛ وعن شاربي الخمر (ابن هرمة)؛ وعن

(١) ضحى الإسلام جـ٢ ص٤٣-٤٤.
(٢) تاريخ الخلفاء ص٢٦٧.

جامعي الأموال الحرام (مروان بن أبي حفصة)؛ وعن أصحاب المنكرات والخبائث (أبو دلامة)؛ إلا الاقتراب من دائرة شئون الحكم وأعمال السياسة، والقدح في الملك، على حد تعبير المنصور، وإهانة الحاكم الأول، فهذا مالا يغتفر، ولا يتسامح فيه.

والخليفة المهدي في النهاية، ابن المنصور، وابن أخ السفاح، إذن فقد تشرب منهجهم، وسار على دربهم.

لذلك أعتقد أن صالح بن عبد القدوس، راح ضحية ألاعيب السياسة، ومكايد القصور، ودسائس الجواسيس، والقتل بالظنة.

هـ - اضطهاد الشيعة:

مطاردة الشيعة، وتتبعهم في مظانهم، واضطهادهم، وتشريدهم وقتلهم، كان قاسماً مشتركاً بين الأمويين والعباسيين. والعباسيون لم يرحموا الشيعة طلاب السلطة والمناوئين لسياستهم، فشردوا بهم وقتلوهم، ويصور الخوارزمي (ت٣٨٣هـ) مدى الإهانات التي لحقت بالشيعة، والحط من قدرهم فيقول: «يموت إمام من أئمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته، ولا تجصص مقبرته، ويموت ضراط لهم أولاعب، أو مسخرة أو ضارب، فتحضر جنازته العدول والقضاء، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة، ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً أو سوفسطائياً، ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً، ويقتلون من عرفوه شيعياً، ويسفكون دم من سمى ابنه علوياً»[١].

والذي يهمنا هنا موقف المهدي من الشيعة، فقد لوحظ أنه يكرههم كرهاً شديداً لاسيما المنادون بحق أهل البيت في الخلافة. ويقال: إنه عزل يعقوب بن داود ورماه في المطبق لأنه كان يميل للشيعة ويتعاطف معهم[٢].

وفي حوار بين المهدي وشريك القاضي يتبين مدى حنق المهدي على الشيعة. «قال المهدي: إني لأراك فاطمياً خبيثاً».

---

(١) رسائل الخوارزمي ص٧٩.

(٢) تاريخ الطبري جـ٨ ص١٥٨-١٦١.

قال شريك: والله إني لأحب فاطمة وأبا فاطمة ﷺ.

قال: وأنا أحبهما، ولكن رأيتك في منامي مصروفاً وجهك عني، وما ذاك إلا لبغضك لنا، وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق.

قال: يا أمير المؤمنين لا تسفك الدماء بالأحلام، وليس رؤياك رؤيا يوسف عليه السلام، وأما قولك بأني زنديق، فإن للزنادقة علامة يعرفون بها.

قال: وما هي؟ قال شريك: يشرب الخمر ويضرب بالطنبور»[١].

ولا يخفى تعريض شريك بالمهدي، وذكر نواقصه، والإشارة إلى لهوه، وتعديه حدود الإسلام. وتشيع صالح بن عبد القدوس ليس مستبعداً؛ فمحبة أهل البيت غلبت على قلوب الجماهير – لاسيما الموالي منهم – وكلما أمعنت السلطة السياسية في مطاردتهم، تعاطف معهم القلب العربي الإسلامي، وصالح شاعر مرهف الإحساس، صادق النظرة، متدين أشد ما يكون التدين، فلا يستبعد أن يكون متشيعاً لأهل البيت وقصيدته الزينبية قد تؤكد ذلك، وإن كان الشيعة ينسبونها لعلي بن أبي طالب[٢]. لذلك فمن المحتمل أن تكون تهمة التشيع، من التهم التي وجهت سراً إلى مفكرنا، زيادة على عملية التنوير التي قام بها داخل المجتمع العباسي، فأراد أعوان المهدي، أن يلبسوا التهمة السياسية قناعاً دينياً حتى تجد استجابة داخل المجتمع، وتستقطب الجماهير حولها[*].

و- أشعاره تنفي التهمة:

من خلال العرض السابق لأشعار مفكرنا، رأينا كيف اتسمت بطابع ديني مميز استشهد في جلها بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، مستخلصاً العديد من الحكم والمواعظ وغلب على شعره الطابع الأخلاقي وقول الحكمة والحس الديني[٣].

---

(١) العقد الفريد جـ٢ ص٣٣٣.

(٢) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ١ ص١٧٨.

(*) راجع اضطهاد الشيعة وقتلهم في الدولة العباسية كتاب: مقاتل الطالبين ص١٦١-٥٠٣).

(٣) يقول أحد الباحثين: شعر صالح بن عبد القدوس ليست فيه إشارات واضحة تدل على الزندقة والإلحاد (عثمان موافي: التيارات الأجنبية في الشعر العربي ص٢٥٦، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩١م) وقد دعا ذلك

وحية مفكرنا تشبه في كثير من جوانبها، حياة الفيلسوف اليوناني الحكيم سقراط +٣٩٩ق.م مؤسس الفلسفة الخلقية، فكلاهما لم يترك لنا مؤلفاً من المؤلفات.

وفي حين كان صالح بن عبد القدوس، يلقي مواعظه في مساجد البصرة ودمشق، ويلعب دوراً تنويرياً في المجتمع العباسي، كان سقراط يقدم مواعظه في شوارع أثينا وأسواقها ونواديها، وينشر مكارم الأخلاق، ويقوم بمهمة التثقيف والتوعية، حاثاً على الفضيلة ناهياً عن الرذيلة؛

ومفكرنا قتل بالسيف، وسقراط قتل بشرب السم؛

وتهمتهما كانت واحدة، وهي الخروج على قواعد المجتمع الدينية، وإفساد الشباب، والدعوة إلى آلهة جديدة، تخالف عقائد المجتمع، التي يدين بها في حين التهمة الحقيقية هي سياسية بالدرجة الأولى.

ثم يبقى وجه شبه أخير يجمع بينهما، فكلاهما فقير، وزاهد، ومتواضع.

والمحصلة النهائية، أن علينا قبول أشعار صالح عبد القدوس التي تبرئه، وتنفى عنه التهمة، وتمدنا بالعديد من الحكم والمواعظ، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الحق والعدالة والتقوى، والبعد عن الجهل والرذيلة، والكذب والنفاق.

نعم إن أشعاره، هي الدليل المادي، الحي والفعال، الذي يدحض أي تهمة ملفقة.

وثمة نقطة أخيرة، إذ لوحظ أن أغلبية المؤرخين الذي أوردوا قصة مقتلة رووا قصة ثانية تنبئ عن تبرئته، فقالوا:

«إن أحد الصالحين، رأى صالح بن عبد القدوس في المنام، ضاحكاً مستبشراً، فسأله ماذا فعل بك ربك؟

قال صالح: إني وردت على رب لا تخفى عليه خافية، فاستقبلني برحمته،

بعض الباحثين إلى تبرئته من تهمة الزندقة ومنهم، عبد الله الخطيب: صالح بن عبد القدوس، ص٧٨، بغداد، ١٩٦٧م.

وقال: قد علمت براءتك مما كنت تقذف به.!![1]

ومن وجهة نظري: إن هذا دليل كبير على شعور المؤرخين بالندم تجاه هذا الرجل، فلم يجدوا وسيلة للإعلاء من شأنهن ورد اعتباره، ونفى التهمة عنه، إلا هذا الحلم، لتبرئته في الآخرة، بعد أن أدين في الدنيا زوراً وبهتاناً.

علاوة على ذلك، فهذا الحلم، برهان ساطع، على شعورهم بالإثم الذي حاك في صدورهم، من جراء قتل رجل مسلم، لا يستطيعون الدفاع عنه، أو تبرئته في وقته، فضلاً عن الوقوف ضد السلطة الحاكمة.

إذ إن بعض المؤرخين، يشاهدون الباطل في دولتهم، ولا يستطيعون دفعه، وينظرون إلى المعتدي، ولا يجرأون على الوقوف في وجهه، ويكتبون في مؤلفاتهم ما يتعارض مع الواقع الذي يعيشونه خوفاً من بطش الحاكم، وقهر السلطان، ومن ثم تأتي كتاباتهم، صورة غير صادقة عن الواقع، فيجملونه قدر ما يستطيعون، بينما هم يؤمنون بخلاف ما يكتبون.

وعلى أي حال، فقد برأ المؤرخون ساحة صالح بن عبد القدوس في الآخرة والدنيا وزعموا أن الله – الرحمن الرحيم – برأه أيضاً، بعد أن كان يعلم براءته. والأحرار دوماً في كل مكان وزمان، لا ينصفهم عصرهم، ولا رجاله، وقديماً قال الليث بن سعد، الفقيه المصري: ويل للمعاصرين من المعاصرين!!

أما الذي ينصف الأحرار والثوار، فهو التاريخ ورجاله الذين يأتون بعد، ويتخلصون من قيد أوامر السلطان، والخوف من جواسيسه، فتنجلي الحقيقة في النهاية، وتشرق على الأرض بنور ربها.

وهكذا تمر الأيام ما بين ظلم وإنصاف، وجور وعدل، وباطل وحق، ودائماً النصر في النهاية للحق والخير والعدل والسلام.

---

(١) ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر جـ٦ ص٣٧٦، نكت الهميان ص١٧٢، ميزان الاعتدال جـ١ ص٤٥٨. حياة الحيوان جـ١ ص٤٣.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

في ٢٣/يوليو/١٩٨٩.

* * *

obeikandl.com

مصادر ومراجع البحث

١- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المتوفي عام ٥٩٧هـ): تلبيس إبليس الطبعة الثانية – إدارة الطباعة المنيرية – القاهرة (١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م).

٢- ابن المرتضى (أبو القاسم علي بن الطاهر أبو أحمد الحسين ت٤٣٦هـ): آمالي السيد المرتضى ط١، مطبعة السعادة، القاهرة (١٣٢٥هـ-١٩٠٧م)

٣- ابن النديم (أبو الفرج محمد ت٣٨٥هـ) الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م.

٤- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ٢، طبعة وزارة الثقافة، القاهرة، بدون تاريخ.

٥- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت٦٨١هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ١ جـ٢، المطبعة الميمنية بمصر، ١٣١٠هـ.

٦- ابن رجب (عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن الحنبلي ت ٧٩٥هـ) جامع العلوم والحكم جـ١ جـ٢، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، مطبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

٧- ابن شاكر (صلاح الدين محمد ت٧٦٤هـ) فوات الوفيات، جزءان، دار الطباعة العامرة، القاهرة، ١٢٨٣هـ.

٨- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف الأندلسي ت٤٦٣هـ) جامع بيان العلم وفضله جـ١ جـ٢ إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).

٩- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد ت٣٢٨هـ) العقد الفريد، جـ١ جـ٢ جـ٣ المطبعة الجمالية، القاهرة (١٣٣١هـ-١٩١٣م).

١٠- ابن عساكر (أبو القاسم على بين الحسن بن هبة الله ٥٧١هـ): التاريخ الكبير جـ٦، طبعة أحمد عبيد، المكتبة العربية، دمشق، ١٣٤٩هـ.

١١- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ): المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.

١٢- ابن كثير (عماد الدين ت٧٧٤هـ): البداية والنهاية. جـ١٠، مطبعة السعادة بمصر.

١٣- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ) لسان العرب ط دار المعارف القاهرة.

١٤- ابن نباته (جمال الدين محمد المصري ت ٧٦٨هـ) سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ط٤،

مطبعة الموسوعات، القاهرة١٣٢١هـ.

١٥- أبو العلاء (أحمد بن عبد الله بن سليمان ت ٤٤٩هـ):رسالة الغفران، دراسة نقدية، الدكتورة عائشة عبد الرحمن، دار المعارف بمصر، ١٩٥٠م.

١٦- الأصفهاني (على بين الحسين ت ٣٥٦): مختار الأغاني جـ١، اختيار ابن منظور الأفريقي، المطبعة السلفية بمصر.

- مهذب الأغاني جـ٩، ٧ صنفه محمد الخضري، مطبعة مصر.

١٧- التهانوي (محمد على الفاروقي من علماء القرن ١٢هـ) كشاف اصطلاحات الفنون، جـ٣، تحقيق د. لطفي عبد البديع. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٨- الحصري (أبو إسحق إبراهيم بن علي القيرواني ت٤١٣) زهر الآداب وثمر الألباب تحقيق د. زكي مبارك، المكتبة التجارية، القاهرة (١٣٥٠هـ-١٩٣١م).

١٩- الخربوطلي (علي حسني): المهدي العباسي، أعلام العرب رقم ٥١ القاهرة، ١٩٦٦م.

٢٠- الخوارزمي (أبو بكر محمد بن العباسي ت ٣٨٣هـ): رسائل الخوارزمي، المطبعة العثمانية بمصر، ١٣١٢هـ.

٢١- الدميري (كمال الدين ت٨٠٨): المختار من حياة الحيوان الكبرى، اختيار محمد الحاذق، وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة.

٢٢- الرفاعي (أحمد فريد): عصر المأمون جـ١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٧م.

٢٣- السيوطي (جلال الدين بن أبي بكرت ٩١١هـ) تاريخ الخلفاء، تحقيق المرحوم محمد محيي الدين عبد الحميد المكتبة العلمية، بيروت.

٢٤- الصفدي (صلاح الدين بن أبيك ت٧٦٤هـ): نكت الهميان في نكت العميان، مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١١م.

٢٥- الطبري (محمد بن جرير ت٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، جـ٨، ط٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.

٢٦- العمروسي (فايد): الجواري المغنيات، دار المعارف بمصر، ١٩٤٥م.

٢٧- الغزالي (أبو حامد محمد بن أحمد ت٥٠٥هـ) المنقذ من الضلال، تحقيق د. عبد الحليم محمود، الأنجلو المصرية، ١٩٦٤م.

٢٨- القاسمي (جمال الدين) تاريخ الجهمية والمعتزلة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٩- المازني (إبراهيم): بشار بن برد، طبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٩٤٤م.

٣٠- الماوردي (علي بن محمد بن حبيب البصري ن٤٥٠هـ) أدب الدنيا والدين، ط١١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٩م.

٣١- المسعودي (علي بن الحسين ت ٣٤٦هـ) مروج الذهب، جـ١ جـ٢ المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٠٣هـ.

٣٢- النشار (د. علي سامي): نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ١، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م.

٣٣- إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء في أربعة أجزاء تقديم د. طه حسين، تصحيح، خير الدين الزركلي، المطبعة العربية، القاهرة ١٩٢٨م.

٣٤- أمين (أحمد): فجر الإسلام، ط٧، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

: ضحى الإسلام، جـ٢ النهضة المصرية القاهرة، ١٩٦٤م.

٣٥- بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربي جـ١ جـ٢، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م.

٣٦- زيدان (جورجي ت١٩١٤): تاريخ آداب اللغة العربية جـ٢، مراجعة د/ شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة.

٣٧- كريمر(فون) الحضارة الإسلامية، ت، د. مصطفى طه بدر دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.

٣٨- محمود (د. زكي نجيب ت١٩٩٣) عن الحرية أتحدث، دار الشروق القاهرة، ١٩٨٦م.

٣٩- مظهر (إسماعيل) تاريخ الفكر العربي دار الكاتب، بيروت.

٤٠- نيكلسون (رينولد) في التصوف الإسلامي، ترجمة د. أبو العلا عفيفي، مطبعة الجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٩م.

: تاريخ الأدب العباسي. ترجمة د. صفاء خلوصي. المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٧م.

٤١- ياقوت (أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ) معجم الأدباء جـ٦، مطبعة عيس البابي الحلبي – القاهرة.بدون.

***